القسم الثالث - أستراليا: تجربة العيش في مجتمع جديد

p. 101-200

FULL TEXT

الهجرة بين الاستلاب وحلم بناء المستقبل

1 بعد انقضاء يومين أو ما يزيد على وصولي إلى سيدني، استيقظت باكراً بانتظار أحد معارف والدي للذهاب معه والمباشرة في العمل المأجور في المصنع الذي كان يشتغل فيه. في بداية السبعينيات من القرن المنصرم، كان العمال اللبنانيون في سيدني يقومون بتأمين اليد العاملة بالاتفاق مع "البوص" (أي المدير المسؤول في المصنع)، عن طريق جلب المهاجرين الجدد لينضموا إلى صفوف العمال في المصنع. وفي الطريق إلى المصنع، أوصاني "الوسيط" أن أدعي أن عمري ثمانية عشر سنة ليجوز لي حسب القانون الأسترالي أن أشتغل في المعمل رغم أن الراتب الذي كنت أتقاضاه كان أدنى من راتب من يقومون بالمهام نفسها، وذلك بسبب الاختلاف بالعمر. منذ ذلك الوقت ولغاية أربعة سنوات متتالية، بدأت رحلتي في اختبار ما دعاه كارل ماركس "البلترة"، أي التحول إلى عامل "بروليتاري" بالمعنى الكلاسيكي للكلمة: أقوم بعمل يدوي يتطلب جهداً جسدياً في المقام الأول يبدأ من الساعة السابعة صباحاً وينتهي في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر. أي ثماني ساعات في اليوم الواحد بعد احتساب الأوقات المخصصة لتناول الفطور (خمسة عشرة دقيقة) والغداء (ثلاثون دقيقة) ثم فرصة شرب شاي بعد الظهيرة (Afternoon tea break خمسة عشرة دقيقة). أربعون ساعة عمل رتيب محكومة بإيقاع الآلة المتكيّفة مع المستوى المطلوب من الإنتاجية. كل ذلك الجهد مقابل راتب قدره ٤٥ دولاراً في الأسبوع (كان عامل المصنع البالغ يتقاضى ٦٥ دولاراً في الأسبوع). ثم أصبح هذا الأمر دائماً نسبياً إذ وجدت عملاً مكثت فيه ما يقارب السنة والنصف، بعدما تنقلت من مصنع إلى آخر هروباً من أن يكتشف "الفورمان" أن العمر الذي أدّعيه أدنى مما يخولني الحصول على الراتب الذي أتقاضاه. في البداية، طلب مني "الفورمان" أن أقف إلى جانبه ليقوم بتدريبي على كيفية تشغيل الآلة التي تصنع أدوات التلحيم من قضبان النحاس الأصفر والأحمر. وبعد عدة ساعات مليئة بالتعليمات وكيفية تطبيقها، باشرت العمل على الآلة. كانت المرة الأولى بحياتي التي أقف فيها قبالة آلة إنتاج تتحكم بجسدي وذهني ووقتي في آن معاً. حركات متماثلة ومتكررة تدوم بين ثماني إلى تسع ساعات يومياً ولخمسة أيام في الأسبوع (أحياناً كنت أشتغل ساعة "أوفرتايم" كلما كان الطلب يزداد على الإنتاج). أضف إلى ذلك، أن المصنع لا تدخل إليه أشعة الشمس، ومساحته تكاد تتسع للعمال والآلات والمواد التي يتم تد
المحروقة تملأ المكان ولا تفارق جسدي رغم الاستحمام اليومي في المنزل (و
عانيت منه لزمن طويل مرده العمل في ذلك المصنع). كان عليّ أن أغض ال
للذهاب مباشرة بعد إتمام دوام العمل إلى المدرسة الليلية لأتعلم اللغة الإنك
"الهاي سكول" تحضيراً للالتحاق بالجامعة.

سنة ونصف، انتقلت بعدها لأعمل "ستورْمِن" (أمين مخزن) في معمل آخر يد
وتشغيل التيار الكهربائي في المنازل والأبنية التجارية وغيرها. ترافق هذا الانت
العمل مع تحسن لغتي الإنكليزية قراءة وكتابة. فالعمل الجديد الذي دام ما يـ
على مخاطبة العمال والمسؤولين في المخزن التابع للمصنع باللغة الإنكليز
الطلبية وتوضيبها وتوصيلها إلى المكان المخصص لها بوضعها على حزام م
بدوام كامل في المصانع، إضافة إلى عمل جزئي في عطلة نهاية الأسبوع ف
قبل أن أصبح مترجماً شفهياً حراً، علمتني بالملموس ماذا يعني أن تكون عام
إنكليزية. خلال تلك التجربة "البروليتارية"، لم أشعر فقط بالغربة تجاه عملية ا

والمنتج الذي كنت أساهم في إنتاجه، بل أيضاً تجاه اللغة والثقافة الأسترالية التي واجهتها في تلك الأيام. أذكر مثلاً كنت أندفع تلقائياً في فرصة الغداء وأدعو العامل الذي بقربي للمشاركة في تناول الوجبة التي بحوزتي. وغالباً ما كانت وجبتي مجهزة على الطريقة اللبنانية بفضل الوالدة، وكنت أستغرب الرفض القطعي الذي أتلقاه من ذلك العامل الأنغلو-سكسون المتقدم بالعمر مراراً وتكراراً. كما كنت أستغرب كيف أن العمال الذين "صاحبتهم"، كانوا يفصلون بين متطلبات العمل وواجباته وبين "الصحبة"، فلا مجال للمحاباة في ذلك، ويرفضون أن تتعدى "صحبتهم" لي عتبة المصنع.

3 وبالرغم من هذه "الغربة المزدوجة"، كنت في غاية الحماس لأحقق حلمي الخاص، دون إغفال الهدف العائلي أيضاً والذي تجسد في السعي لامتلاك منزل لنا جميعاً. كلنا في الأساس هاجرنا من بلدنا لتحسين أوضاعنا المعيشية، وفوق ذلك كان هدفي تحقيق حلمي بأن أصبح مهندس كهرباء بعد اكتساب المستوى المطلوب من اللغة الإنكليزية، والدراسة للحصول على الشهادة الثانوية، وأخيراً الالتحاق بالجامعة لدراسة الهندسة الكهربائية. كان هذا الهدف يثير لديّ اندفاعاً جامحاً للعمل والمثابرة والانخراط في "الحياة" بقوة وعزم لا مثيل لهما. وربما، لا بل من المؤكد، أن هذا الحماس هو الذي جعلني أتحمل "الغربة المزدوجة" التي كانت تحيط بي من جميع الجهات.

الذات في وسط صدام "الثقافات"

4 داهمتني الثقافة الأسترالية-الغربية (بالمعنى الأنثروبولوجي) قبيل عدة أشهر من هجرتي إلى موطنها، أستراليا. حدث ذلك عندما دعاني جو للغداء في مطعم/مقهى في طرابلس. جو هذا من وادي قنوبين، هاجر منذ صغره إلى أستراليا وكان يقوم بزيارة إلى لبنان سعياً للزواج من روز، ابنة الأستاذ وديع وأخت فيكتور، صديقي في منطقة القبة، طريق الأرز. كانت العزيمة التفاتة لطيفة من شاب في الثلاثينات من عمره، لاحظ صداقتي لفيكتور وأراد أن ينسج معي علاقة صداقة، خصوصاً بعدما علم أنني سأهاجر قريباً إلى سيدني. مع اقتراب الموعد التقيته على الطريق العام الموازي لمنزل فيكتور، واستقلينا سيارة سرفيس متوجهين إلى طرابلس. كان المطعم/مقهى يقع على زاوية شارع الثقافة (على ما أذكر). كانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى هكذا مكان. طاولات وكراسي ذات لون أسود وعلى كل طاولة محارم بيضاء ومزهرية صغيرة تتوسطها عدة زهور ملونة، وإنما اصطناعية. على الجهة اليمنى من المدخل، يوجد بار مستطيل وطويل نسبياً عليه آلة لتحضير الكابوتشينو، القهوة التي ذاع صيتها وقتئذٍ، وكان توفرها في المدينة حديثاً جداً. وما لفتني أيضاً في ذلك المكان الأنيق، الرفوف الزجاجية في الجانب المقابل للبار المزدانة بعدد قليل من القناني الزجاجية الملونة وذات أحجام وأشكال متنوعة وأنيقة (بالمناسبة، تعلمت لاحقاً أن تلك الطاولة يطلق عليها اسم بار، وأن السوائل الملونة هي أنواع متنوعة من الكحول). كذلك استرعى انتباهي النادل الأنيق
إلى المكان. أما الطامة الكبرى فكانت عندما كان عليّ استخدام الشوكة والس
ستيك التي نصحني جو بأن أطلبها وجبة غداء. ورغم استنادي إلى مراقبة صا
استخدامهما، إلا أن الارتباك والتوتر لم يغادراني طوال تناولي الطعام. وما زا
يومذاك، كان ارتشافي فنجان الكابتشينو بعد الغداء للمرة الأولى في حياتي (
من العمر).

لا شك في وجود طبقة وسطى متنامية في طرابلس في أواخر الستينيات، و
"متغرْبنة"، لكن المفارقة أن تجربتي الأولى مع بعض الجوانب من تلك الأسا
الأسترالي" لتناول الغداء في مدينة طرابلس (بالمناسبة، لم تكن مظاهر"الغرْ
بعد): كان جو المسيطر بماله و"ثقافته" وجسده على دعوة الغداء وطقوس ا
امتداداً لموقعه الطبقي و"ثقافته الأسترالية"، وأنا القادم من عائلة "مستورة"
تتحدران من موقع اجتماعي "مستور"، وقد استبطنتهما لدرجة أصبحا يتحكما
التلقائية. بعد سرد هذه الحادثة، أجد نفسي الآن مندفعاً لسرد المزيد من نتائج

الأنغلو-سكسونية بعد هجرتي إلى بلاد "الكنغر". وما يستحضرني الآن، أجد أن له علاقة بما تطلق عليه كتابات علم الاجتماع تعبير "العلاقات الحميمية".

6 لم يمضِ على وصولي إلى سيدني إلا بضعة أيام، عندما اكتشفت أن في الشارع الذي نستأجر فيه منزلاً، ماسيتر ستريت، كان يسكن أيضاً شاب من مواليد سيدني يتحدر من بلدة زغرتا. كان هذا الشاب موظفاً في القطاع العام، ولديه معلومات عن كيف وأين يمكن لشخص مثلي يريد أن يستكمل دراسته أن يلتحق ببرنامج لتعليم اللغة الإنكليزية. فرحت جداً بهذا "الاكتشاف"، وبسرعة ضربت موعداً معه ليصطحبني إلى المدرسة التي تعطي دروساً في اللغة الإنكليزية ويساعدني في الالتحاق بتلك المدرسة الليلية، في منطقة بانكستون. وبعد إتمام التسجيل في تلك المدرسة (ما يطلق عليها الآن اسم

7 TAFE, Technical and Further Education) كدت أطير فرحاً لإنجاز تلك المهمة التي بانت لي في البداية مهمة مستحيلة. فأصدقاء الوالد عمال مصانع لا معرفة لديهم بشؤون الدراسة والتدريس.

8 وبينما كنا متوجهين إلى محطة القطار للعودة إلى المنزل، رفعت ذراعي اليمنى ووضعتها على كتف جارنا الشاب تعبيراً عن المعزة (على الطريقة اللبنانية) التي شعرت بها تجاهه، وعن امتناني له على تلك الخدمة التي سددها لي. وإذا بجيمي (في الواقع لم أعد متأكداً من الاسم؟) يفاجئني بطلبه الفوري أن أرفع ذراعي عن كتفه والامتناع عن الاحتكاك به بالكامل بقوله ما معناه: "هذه الحركة غير مقبولة في أستراليا، إذ لا يقوم بها إلا الهوموسكشيول"، فتعبير "المثليّيين جنسياً لم يكن دارجاً في ذلك الزمن. بالطبع امتثلت لطلبه فوراً لكن دون أن أدرك ما قاله لي بالكامل. فأنا متمرس في ثقافة الصحبة الذكورية التي تعتمد على اللمس والاحتكاك بالجسد، وهو الشاب الناشئ في أستراليا حيث الذكورية تعتمد على احترام "المجال الخاص" لكل فرد، ولا تقوم "الصحبة" بين الذكور على "التواصل" بالجسد، ومن ضمنها "العبطة" بين المراهقين للتعبير عن المعزة والتقارب. مضت عدة سنوات قبل أن أتخلى تلقائياً عن تلك العادة، ورغم ذلك بقيت في نظر زملائي الأستراليين "لبنانياً" لجهة الطريقة التي أعبر فيها بجسدي وأنا أتحدث معهم أو ألقي محاضرة عامة في الجامعة.

9 مضى على وجودي في أستراليا ما يقارب الخمسين عاماً، ورغم ذلك لم أتأقلم في مسألتين تتعلقان بـ"إتيكات" التزاور والضيافة: أولاً، لم أتمكن من قبول العادة الاجتماعية التي يتم بموجبها عرض المشروب على الزائر فور وصوله إلى منزل الصديق الذي يتقصد زيارته. فكلما زرت أحد الأصدقاء "الأستراليين" في منزلهم، وهذا ما يحدث نادراً في الأساس، تستوقفني لغاية الآن ضيافتهم الفورية لي بمجرد ما ينتهي تبادل السلام والاستفسار عن صحة بعضنا بعضاً. وهذا رغم تفهمي لدوافعهم النبيلة دون أدنى شك.

المسألة الثانية، تتعلق بالفرق بين كمية الأكل الذي يقدمونه لك وأنت في ض
نضعها على طاولة الطعام عندما أقوم بدعوتهم لتناول الطعام في منزلي. و
المجال ليس له بالمطلق أي علاقة بمدى الصداقة التي تربطني بـ"أصحابي"
يتصفون به. وبالرغم من وعيي التام لتلك الحقائق، ما زلت أندهش إزاء هذا ا
واعية.

وأخيراً، أود أن أبوح بمسألة أكثر حميمية. إنها الصعوبة التي كنت أعاني منها
الزواج بالطبع) مع "الغرل فرند" الأسترالية على نهايتها. كان ذلك في النصف
الماضي بينما كنت طالباً في جامعة ماكواري. كنت أشعر أن "صاحبتي" لا تكت
بيننا كاكتراثي أنا. بالنسبة لها، كان قرار الفراق يصدر عن اعتبارات محسوبة بد
الحساب محقاً أم غير محق. أما بالنسبة لي، أنا المهاجر من لبنان، فكان الفراق
الحب الذي كنت "أؤمن" به. لاحقاً، أطلق عالم الاجتماع البريطاني، أنطوني غ
المشروط بتلبية الحاجة المعنوية والعاطفية لدى الطرفين، وتعبير "الحب الرو

النوعين من العلاقة العاطفية. فلقد بقيت أسيراً لمفهوم الحب الرومانسي (أو الديني، وليس الكنسي، بمعنى من المعاني) وتزوجت في أواخر العام ١٩٨٣ مدفوعاً بهذا المعنى "القيمي" للحب.

تجارب في سياق سنوات الدراسة في أستراليا

12 إلى جانب تجربة الدراسة في أستراليا، هناك حوادث موازية يصعب لها أن تغادر ذاكرتي. الأولى وقعت عندما التحقت بالمدرسة المهنية قرب المحطة المركزية للقطار في مدينة سيدني. كانت المهنية تفتح أبوابها مساءً للأشخاص الذين تخطوا سن الثامنة عشرة ويريدون الحصول على شهادة الهاي سكول (بكالوريا قسم ثاني). وهذا ما كان ينطبق عليّ بعدما أمضيت ما يقارب السنة أدرس اللغة الإنكليزية. المهم أنني التحقت بالمهنية أخيراً، وكان عليّ أن أدرس مادتي الكيمياء والفيزياء كجزء ضروري من البرنامج المطلوب إتمامه لقبولي في الجامعة لدراسة الهندسة الكهربائية. وبعد ما يقارب الأسبوعين، دعى أستاذ العلوم التلامذة إلى المختبر كجزء من تدريس مادتي الفيزياء والكيمياء. وعندما دخلت المختبر إلى جانب زملائي الطلبة، صدمت بشدة لما شاهدته لأول مرة في حياتي. فخلال دراستي في لبنان للشهادة التكميلية، لم أشاهد ولم أختبر ولو للحظة أي شيء له علاقة بالمختبر. كان المكان والأدوات الموجودة فيه غريبة عني بالتمام والكمال. وما ضاعف المشكلة، كانت لهجة الأستاذ الأسترالية "القحة" (أوكِزْ أكْسَنْتْ) معطوفة على درجة سريعة في النطق لم أتعود عليها بعد. على إثر تلك التجربة "الصادمة" لابن مدرسة آباء البيض في محلة القبة، طرابلس، قررت أن أنقل تسجيلي من برنامج الهاي سكول العلمي والالتحاق بالبرنامج الأدبي، ورحل مع هذا الانتقال حلمي في أن أصبح مهندساً كهربائياً كما كنت أعِد نفسي لعدة سنوات.

13 وتماشياً مع البرنامج البديل، كان علي التسجيل في خمسة مواد، اثنتان منهما إلزاميتان، أي مادة اللغة والأدب الإنكليزي والرياضيات، والمواد الباقية التي اخترتها كانت تاريخ معاصر (مختزل إلى تاريخ أوروبا فقط) واقتصاد (الليبرالي والكنزي أساساً) واللغة والأدب الفرنسي. وصممت بحماس أن أدرس برنامج الشهادة الثانوية في سنة واحدة بينما كان إتمامه في الظروف العادية يستغرق سنتين. كنت أطمح للتعويض عن الوقت الضائع بسبب دراستي للغة الإنكليزية. لسوء الحظ أني سقطت في الامتحانات الرسمية لعدم نجاحي في مادة اللغة والأدب الإنكليزي، رغم حصولي على معدل عام تجاوز السبعين بالمئة. كان النجاح باللغة الإنكليزية والرياضيات شرطاً إلزامياً للحصول على الشهادة الرسمية. إثر ذلك، عاودت التسجيل بالبرنامج لمدة سنتين، وفي نهاية المطاف، قُبلت لدراسة الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة ماكواري في شمال غرب سيدني.

14 وفي السنة النهائية للتحضير للشهادة الثانوية، أصبحت مقرباً من أستاذ مادة التاريخ لدرجة أنه تبرع لتوصيلي مراراً من المدرسة إلى البيت لاكتشافه أن الطريق المؤدية إلى منزله تمر بالق
أن هذا التقارب كان مرده الوعي السياسي الذي ظهر لدي خلال النقاش في ال
الامتحانات المدرسية. في تلك السنة، كنت بدأت بالانجذاب إلى الرؤية المارك
ميول الأستاذ كانت يسارية أيضاً. وبينما كانت "صحبتنا" تتعزز شيئاً فشيئاً، لا
بريطانية بدأ في التعبير عن امتعاضه من علاقة الصداقة التي نشأت بيني و
مظاهر الامتعاض كثيراً وتعمدت أن أتجاهلها، لكنني بقيت أتساءل عن الدافع
غالب الأحيان؟ هل كان الدافع هي الغيرة التي يستولدها نظام المنافسة الم
تجاه الطالب المهاجر من لبنان؟ هل مظاهر الحسد والضيق سببها استحواذي
أستاذ التاريخ؟ أم أن الدافع مرده كل هذه العوامل بالتفاعل والتكامل؟ بقيت
كلما عادت بي الذاكرة إلى السنة الدراسية التي سبقت مرحلة دراستي الجام
الشافي عنها لغاية الآن.

دعيت من منظمة طلابية يسارية لإلقاء محاضرة عن الحرب الأهلية في لبنان
الأولى. وبينما كنت أتكلم بحماس عن أسباب الحرب والمواجهة مع "المشروع
الوطنية" وتحالفها مع "الثورة" الفلسطينية، وقف شاب مربوع القامة وبدأ يو

أعرضها على الحضور، مدافعاً عن "المجتمع المسيحي" في العيش "الحر"، ومنتقداً "تجاوزات" الفلسطينيين في لبنان باسم "السيادة الوطنية" و"اليسار الدولي" وتحالفه مع "المسلمين". كان حماس المعترض على كلامي لا يقل عن درجة حماسي عندما طرحت وجهة نظر "الحركة الوطنية" مع التركيز على رؤية اليسار اللبناني بشكل خاص. مضت عدة سنوات ولم أشاهد فيها ذلك الشاب في حرم الجامعة لغاية المرحلة التي بدأت خلالها التحضير لأطروحة الدكتوراه. عندها فاجأني ذلك الشاب بأنه قد تحول سياسياً ١٨٠ درجة، وأصبح من أنصار التروتسكيين، أي على يسار الحزب الشيوعي ومنظمة العمل التي كنت عضواً في صفوفها. ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أصدقاء، وأنهى كل واحد منا أطروحته التي تناولت بالبحث موضوع لبنان والحرب الأهلية من جوانب مختلفة. غسان أصبح بروفسوراً في الأنثروبولوجيا في جامعة ملبورن، وأنا تنقلت في مهنة التعليم الجامعي بين سيدني ولبنان واستقريت منذ ستة عشرة سنة أدرس مادة علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية الأمريكية في بيروت.

16 وبقيت المسائل التي ناقشتها أنا وغسان منذ خمس وأربعين سنة، ولا تزال، عالقة وموضع جدال مستمر في لبنان والاغتراب. الآن لم أعد أجادل وأناقش بالقضايا السياسية في لبنان بالخفة ذاتها والمنطق الإقصائي الذي طبع خطابي اليساري لسنوات. فهوية اليسار أصبحت بحاجة ماسة لإعادة تعريف، وأنا من الأشخاص الذي يشاركون في هذه الورشة ضمن إمكانياتي المتوفرة، وفي مجال اختصاصي بنوع خاص (سأتطرق لاحقاً إلى الدراسة الجامعية والعمل الحزبي في أستراليا).

17 وذات يوم بينما كنت في الجامعة، قرأت إعلاناً لحضور اجتماع لمناقشة قضايا المرأة. فوراً عقدت العزيمة لحضور الاجتماع بدافع قناعاتي اليسارية الماركسية، إضافة إلى وقوفي المبدأي إلى جانب الفئات المضطهدة، أكان بسبب الجنس أو العنصرية أو الدين. ومع ارتفاع منسوب الحماس لقضية المرأة، كنت من أوائل الذي حضروا إلى مكان الاجتماع المنعقد في قاعة من قاعات الجامعة المخصصة للأنشطة الطلابية. وتوجهت فوراً للجلوس بالقرب من الصفوف الأخيرة، إفساحاً للمجال أمام أصحاب الدعوة ومناصريهم. وقبل افتتاح الاجتماع، لاحظت مجموعة من الناشطات يتشاورن بصوت خافت، وينظرن إليّ وإلى بعض الشباب الذين شاطروني القرار بحضور المناسبة. وإذا بواحدة منهم تتوجه إلى الميكروفون وتدعو جميع الذكور للخروج من القاعة شرطاً للمباشرة في الاجتماع لنقاش جدول الأعمال المقرر. وكانت حجتها تتمحور حول الموقف الذي يقول ما معناه إن مجرد الحضور الفيزيائي للذكور سوف يعيق الحضور النسائي عن التعبير الحر عن الاضطهاد الذكوري الذي يعاني منه. صعقت بهذا الموقف، وأنا المعروف بوقوفي إلى جانب المرأة في معركتها ضد جميع أشكال الاضطهاد الذكوري و"النظام البطريركي"، التعبير الشائع وقتئذ. فكان انسحابي من الاجتماع المزمع قيامه، برفقة الشباب الذين أتوا لحضور الاجتماع فيه شيء من الخجل والانكسار. ورغ
الذي اتخذته المجموعة النسوية الداعية إلى الاجتماع، لا سيما لجهة التأثير الر
نسائي يسعى للتحرر من سلطة الرجال، إلا أنني لم أتمكن من قبول فكرة خرو
للدعم والتضامن. ومع تقدمي في دراسة علم الاجتماع وخصوصاً حضور الص
كونيل، البروفسورة المشهورة عالمياً بدراساتها عن نظام الجندر، تيقنت أنه لي
يميز بين الهوية الجنسية والجندرية للفرد، ولكن بقيت العديد من الحركات الن
معاكس في هدفه للغرض الذي يتوخاه الرجل "البطريركي". النسويون كانوا
واللامفكر فيه إلى تعزيز قدرتهم على محاربة "الرجل"، و"الرجال" يسعون بال
بجعل مكانتها ودورها الاجتماعي امتداداً لخصائصها البيولوجية. وفي خضم د
والمؤطرة بمفاهيم لم تَعِ بعد ضرورة الفصل بين منظومة العلاقات الجندرية
من الاجتماع مطأطأ الرأس ومصدوماً من قرار "الرفيقات" بطردي منه.

ومع الإقرار المبدئي بضرورة الفصل بين الأنوثة والذكورية وبين الهوية البيول
أصبحت آنذاك قادراً على ممارسة هذا التمييز في جميع المجالات، لا سيما ال

الأول لي في هذه المسألة عندما تواعدت مع طالبة لتناول العشاء في البسترو الواقع قرب الجامعة. تحمست جداً لذلك الموعد إذ كان الأول من نوعه مع فتاة جذبت انتباهي ومن أصول إنغلو-سكسونية. وبينما كنا نتناول الطعام ونشرب النبيذ على وقع الموسيقى، لاحظت أن ساقي الفتاة ممتلئتان بالشعر الكثيف نسبياً بينما كانت تضع الساق على الساق مرتدية اللباس "الهيبي" الذي يصل إلى القدمين. بعد اكتشافي هذا، لم أعد أتمكن من المضي قدماً في الحوار الآيل إلى المزيد من الحميمية. وبدأ حديثي يتخذ طابعاً عادياً لا علاقة له بما سبقه من تبادل للعواطف. هكذا انتهى لقاؤنا الأول والأخير بذهاب كل واحد منا إلى بيته.

19 بعد سنوات أدركت أكثر فأكثر، أن الإقرار الذهني بالتمييز بين "الجندر" و"الجنس" لا يكفي لتقبله ذاتياً في الحياة الخاصة، لا سيما الجانب الحميمي منها. وكنت مسروراً أن قبول التمييز أعلاه لا يسقط بالضرورة "خيار" الانجذاب إلى بعض مظاهر الجمال الأنثوي المتحدرة من المنظومة البطريركية، مع الإصرار المبدئي والعملي على عدم توظيفه لهيمنة الرجل على المرأة.

ماركس والدراسة بين جامعة ماكواري وسيدني

20 على ضؤ النتائج التي فزت بها في الامتحانات الرسمية للشهادة الثانوية، تم قبولي في جامعة ماكواري، شمال غرب سيدني، في كلية التاريخ والفلسفة والعلوم السياسية. فرحت جداً بهذا النبأ الذي وردني بالبريد. وأخيراً، تغلبت على المصاعب التي واجهتني، أكان لجهة امتلاك اللغة الإنكليزية أولاً، أم لجهة الفروقات في برامج التعليم بين لبنان وأستراليا. لكن التحدي الأكبر الذي زال، وربما لو استمر في الوجود لجعل دخولي إلى الجامعة شبه مستحيل، كان تكلفة الدراسة الجامعية. كان التعليم العالي في أستراليا تاريخياً محصوراً بأبناء الفئات الوسطى وما فوق. ومع وصول حزب العمال إلى السلطة عام ١٩٧٢، بقيادة غوف ويتليم التاريخية، أصبح التعليم العالي (والعديد من الخدمات الأساسية في الحياة، كالطبابة والاستشفاء) مجانياً. علاوة على ذلك، جاءت هذه الخطوة التاريخية مرفقة بقرار يقضي بصرف مبلغ من المال أسبوعياً يتقاضاه الطالب لتغطية مصروفه الشخصي. سياسة حزب العمال الإصلاحية هذه ساعدتني ليس فقط في تجاوز العقبة المالية أمام استكمال دراستي الجامعية، بل أيضاً في توفير القدرة على تقديم معونة مالية لوالديّ وقد مضى على شرائهما منزلاً ما يقارب السنة، بعد تأمينهما لقرض مصرفي لهذا الغرض. ومما ساهم أيضاً في قدرتي على المساهمة في دفع الأقساط المتوجبة على شراء منزل العائلة، كانت مزاولتي للترجمة بدوام جزئي خلال أوقات الفراغ، والعمل في مطبعة في فرصة نهاية الأسبوع.

21 مع تقاطع الإصلاحات الاجتماعية لحزب العمال والحماس الشخصي لأكمل دراستي الجامعية، بدأ مسار تكويني في مجال الفلسفة وعلم الاجتماع. كان يجوز للطالب أن يحصل على شهادة ب
رغب في ذلك، في المجالين معاً. لكن هذا القرار تكوّن لديّ بالتدرج، وانتهى ب
الدكتوراه في علم الاجتماع مغادراً مادة الفلسفة لاعتباري إياها كثيرة التجريد
من الكتابات الفلسفية، عن تناول الشروط الفعلية للحياة الإنسانية.

مع مرور الأيام، وجدت نفسي منجذباً أكثر فأكثر لدراسة الفلسفة الاجتماعية و
لم تستهوني الفلسفة التحليلية ذات التقليد البريطاني، الأمر الذي دفع بي ل
الأوروبية، وعلى رأسها الماركسية التي تمثلت آنذاك بكتابات لويس ألتوسير
Nicos Poulantzas من جهة، وكتابات مدرسة فرانكفورت وما سمي بالتيار ا
سارتر، من جهة أخرى. وفي مجال فلسفة العلوم، لفتتني نظريات عدة أذكر م
وفايربند وباشلار وبوبر وباشكار، وقد كتبت مقالات بحثية عديدة حول نظريات
والمنظور الألتوسيري في قراءة تاريخ إنتاج النظريات العلمية. وأهم الأساتذة
اهتمامي بالفلسفة كانوا ماكس دويتشر وروس بوول. الأول كان متخصصاً با
ماركسياً، وقد علمني مقرراً في السنة الرابعة كان مهماً لي لفهم كتاب "رأس
"كيف تقرأ كتاب رأس المال". وأذكر تماماً أن روس كان متأثراً بكتاب ألتوسير

تقديمه لهذا السيمنار. وتسنى لي في السنة الرابعة في سياق التحضير لشهادة بكالوريوس شرف، أن أتسجل بمقرر في دائرة الفلسفة في جامعة سيدني، على أن يُحسب لي من جامعة ماكواري. كان يشار آنذاك إلى ذلك المكان بالدائرة التي تعلم الفلسفة "تحت شجرة الجّاكَرَنْدة" لوجود تلك الشجرة وارفة الأغصان على المدخل الرئيسي له. جورج ماركوس، كان المسؤول عن تقديم المقرر تحت عنوان "النظرية النقدية". وكان من أفضل الفلاسفة في جامعة سيدني في هذا المجال، لا سيما وأنه تتلمذ على يد الماركسي الهنغاري جورج لوكاش. وعدا الاستفادة الكبيرة من تلك القامة الهامة في المدرسة النقدية، ما لا يمكن نسيانه من تلك التجربة هي لهجة البروفسور وهو يتكلم الإنكليزية بلكنة هنغارية. وبسبب استفادتي القصوى من ذلك السيمنار، حضرت صفاً آخر له بصفتي مستمعاً في السنة التالية، وكان مخصصاً لقراءة "فينومينولوجيا الروح" للفيلسوف الألماني هيغل. ومن الدروس الأساسية التي خرجت منها بعد إتمام السيمنار هو ضرورة قراءة الفلاسفة الألمان ومن ضمنهم ماركس وكانت، باللغة الألمانية لضمان فهمٍ أفضل لأعمالهم. بالطبع كان ماركوس يتقن اللغة الألمانية. وفي الدائرة ذاتها، لفتني فيلسوف ماركسي آخر يدعى وول ساشتنغ سمح لي أيضاً أن أشارك في صف مخصص لطلاب الدكتوراه حول "المادية التاريخية"، وسيمنار آخر خصص لمناقشة كتابات فوكو التي بدأت باكتساب الشهرة في بداية الثمانينيات. كان الدافع لدي ولدى الأساتذة الماركسيين آنذاك هو دحض إدعاءات فوكو التي شملت هجوماً على الماركسية (وغيرها بالطبع) تحت عنوان "إعلان موت الإنسان".

23 تجربتي في دراسة الفلسفة كانت ممتعة وغنية ومفيدة للغاية. علمتني أموراً لم تغادرني أبداً، منها القدرة على النقد ونحت المفاهيم والتفكير المنهجي، وفوق كل ذلك، التوق الدائم إلى مزيد من المعرفة والسعي إليها. لكن لا بد من الاعتراف أن لانبهاري وتحزبي لماركس والمفكرين الماركسيين كان له ثمناً باهظاً إذ أدى إلى عدم إيلائي الاهتمام الكافي، لا بل الاستخفاف، بكل ما يناقض الماركسية أو ليس له علاقة بها. أدركت ذلك جيداً عندما تخرجت وبدأت مهنة التعليم الجامعي. وينطبق هذا القول أيضاً على طريقتي في التعاطي مع المواد التي درستها في مجال الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

24 أما المواد المطلوبة لدراسة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، فكان الغالب عليها في منتصف السبعينيات وبداية الثمانينيات ليس فقط الكتابات الماركسية، بل أيضاً النظريات النسوية والجندر وبدايات المرحلة التي بدأت فيها المدرسة الثقافوية في البروز. ومن حسن حظي، أن معظم المواد التي درستها كان يتولى تدريسها بوب كونيل، البروفسور المشهور عالمياً في دراسات الجندر والذكورية (لاحقاً تحول جندرياً فتخلّى عن ذكوريته وأصبح أنثى يعرف باسم رايوين كونيل)، وتيم راوز، المتخرج حديثاً بتفوق. وكنت كلما أكملت مادة إضافية من برنامج علم الاجتماع، كلما ازدادت قناعتي بضرورة أن أحضر أطروحة الدكتوراه في علم الاجتماع. هذه المواد لا سيما الجانب النظري منها تقاطعت كثيراً مع المواد الفلسفية التي درستها با[...] بالمجتمع وسلوك البشر والأحداث.

ومع الاقتراب من السنة الرابعة، وجدت نفسي مهتماً بكتابة الأطروحة المطلو[...] الشرف، حول مفهوم ألتوسير عن الكلية الاجتماعية والسببية البنيوية ومعنى [...] "هو العامل المقرر في التحليل الأخير". وتماشياً مع نظرية ألتوسير حول "اله[...] للقيام بذلك البحث بعاملين: الأول له علاقة ببنية النظرية الماركسية وتماسك[...] وزميله باليبار، والثاني يعود إلى هاجس يقع خارج البنية النظرية قيد الدرس، [...] تحليلها مع البقاء على الدور المقرّر للاقتصاد. وعلى الرغم من مفهوم "الاست[...] ومفهوم التمفصل بين مختلف البنى الاجتماعية، كما مفهوم السببية البنيوية [...] وتمظهراتها، توصلت في نهاية الأطروحة إلى استنتاج يؤشر إلى صعوبة اتسا[...] التمسك بالقول إن الاقتصاد يحتم التشكيلة الاجتماعية "في التحليل الأخير".

كتابة الدكتوراه بين الهموم النظرية والتكيف مع واقع الهجرة

26 مع الانتهاء من كتابة الأطروحة استكمالاً للسنة الرابعة الجامعية، سجلت ببرنامج الماجستير مع اكتساب الحق في الانتقال إلى برنامج الدكتوراه شرط أن يقتنع البروفسور المشرف (إين بادفرد) بأن ما تقدمت به من مشروع بحث أولي وما قمت به من أبحاث خلال سنة أو يزيد يستأهل أن يتحول إلى أطروحة دكتوراه. وهكذا كان بعد مرور السنة الأولى من عملي على الأطروحة. كان هاجسي مزدوج الأبعاد: كنت ملتزماً بفرع منظمة العمل الشيوعي في سيدني، ومتبنياً القراءة السياسية للمنظمة فيما يتعلق بالنظام السياسي في لبنان. وعليه صممت أن أعمق هذا الالتزام بإجراء بحثي عن لبنان، ولكن من منظور علم اجتماعي سياسي تاريخي مركب. وتماشياً مع هذا المنظور، صغت السؤال المركزي التالي: ما هي العوامل الاجتماعية السياسية والتاريخية التي أفرزت الكيان اللبناني رسمياً العام ١٩٢٠ وشكلت الأسس التي بنيت عليها الدولة في لبنان؟ وبالمقابل، ما الذي أدى إلى انهيار الدولة وزعزعة الكيان بعد انفجار الحرب الأهلية في نيسان ١٩٧٥؟ أما الهاجس الآخر فمصدره نظري يعود إلى النقاش الدائر حول "البنى الفوقية" (أي البنى السياسية والاجتماعية على مختلف أنواعها والثقافية) وعلاقتها بـ"البنى التحتية" (أي نمط الإنتاج الاقتصادي أو الأنماط الإنتاجية المتعايشة مع بعضها البعض). هذا النقاش الذي شاركت فيه بكتابة أطروحة بكالوريوس الشرف من باب نظرية ألتوسير عن السببية البنيوية والاستقلال النسبي للبنى وتحتيم البنية الاقتصادية للتشكيلة الاجتماعية "في التحليل الأخير". وبالعلاقة مع السؤال المركزي للأطروحة، كان همي أن أقدم تحليلاً لظاهرة الطائفية في لبنان من منظور ماركسي يرى في الطائفية منظومة علاقات "مادية" (تماشياً مع قول ألتوسير الشهير بأن الإيديولوجيا هي ظاهرة مادية)، دون التفريط بالدور الحاسم للاقتصاد في تحليل هذه الظاهرة. من هنا جاء اختيار عنوان الأطروحة مجسداً لهذه الهواجس: "دياليكتيك الوحدة والتقسيم: الطبقة والطائفية والدولة في لبنان".

27 إذن، تمحور بحثي حول رصد دور الطبقة الاجتماعية والإديولوجية الطائفية ليس فقط في العملية التاريخية التي أدت إلى بناء الدولة اللبنانية و"وحدتها"، وإنما أيضاً على دورهما في تقسيم الدولة والمجتمع ودخول لبنان في حرب أهلية مدمرة. وإلى جانب ألتوسير، استندت إلى كتابات موريس غودليي المتعلقة بفكرة أساسية مفادها أنه إذا دخلت العلاقات التي تشكل جزءًا من البنى الفوقية في تنظيم علاقات الإنتاج، فإنها تصبح بدورها جزءًا من البنية التحتية. غير أن ذلك لا يلغي الاستقلالية النسبية للبنى الفوقية في لبنان في علاقتها مع البنية الاقتصادية التحتية، ولو اختلفت درجة هذه "الاستقلالية" بسبب ضعف التفارق بينهما من جهة، وبين البنى الفوقية ذاتها من جهة أخرى.

28 دفع بي هذا المنحى في التفكير إلى طرح السؤال عن خصائص الطائفية كعلاقة سيطرة طاغية والأكثر شمولية على مستوى البنية السياسية (والبنية الاجتماعية) في لبنان. وكان الجواب عند ابن خلدون ومفهوم "الاستتباع" الذي استخدمه في مقدمته الشهيرة. ويعود الفضل في اكتشاف
وتحليل خصوصية علاقات السيطرة الطائفية (وكل سيطرة ما دون الهوية الو
كتاب له صدر عن دار الطليعة عام ١٩٧٩، بعنوان "حروب الاستتباع: لبنان الحر
استخدامي لهذا المفهوم، تمكنت من إلقاء الضوء على الأسس التي بُنِيَت عل
السلطة والدولة في لبنان، وأسس انفراط عقدها. وأظهر التحليل الذي قمت
التي تولت مشروع بناء الدولة في لبنان والحفاظ على وحدتها ووحدة المجتم
قِوامها الاستتباع، بينما "الكتلة التاريخية" التي بنت الدولة والأمة وحافظت ع
الحديثة، قد استندت على ما أسماه غرامشي "الهيمنة". وفي الوقت الذي يتو
أسس علاقات الاستتباع، فإن هذا النمط من "الوحدة" "رجراج" بالأساس لأنه
(الطائفة على المستوى الأكثر شمولية، ثم المناطق والعشائر وغيرها) التي ت
السياسية والمجتمعية، رغم "استتباع" الوحدات الأقوى للوحدات الأضعف. أم
والمجتمعية التي تقوم على "الهيمنة"، فإنها تستند إلى هوية سياسية أكثر ت
الأصل على الجميع بصفتهم مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات. وفي
لا يجري باسم هوية إقصائية تسعى للحفاظ على خصوصيتها وخصوصية من

لإحقاق السيطرة على "الآخرين"، بل هو يتمحور حول إعادة تحديد المصلحة العامة التي تتضمن تعريفاً جميع أفراد المجتمع، ولو من مواقع فئوية متنوعة.

29 ماركس من منظور ألتوسير وغودليي وغرامشي، معطوفاً على مفهوم ابن خلدون لمفهوم "الاستتباع" كما وظّفه وضاح شرارة في قراءته للحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٥)، إضافة إلى كتاب آخر لشرارة بعنوان "الطائفية في لبنان: خط اليمين الجماهيري"، جميع هذه المؤلفات شكّلت المصادر النظرية الأساسية التي استلهمتها في كتابة الأطروحة. أما المصادر الأخرى التي اعتمدت عليها لسرد الأحداث وكشف المعطيات، فعديدة ومتنوعة. أذكر منها أطروحة الدكتوراه لنجلاء عطية وبول سابا، وكتابات كل من بطرس لبكي وسليم نصر واسبانيولو وأليا حريق وبُوراث صاحب الدراسة القيمة عن "ثورة الفلاحين" (1859-1861) في كسروان، إضافة إلى كتابات دومينيك شفالييه وكمال صليبي وأحمد بيضون وبعض وثائق الأرشيف الفرنسي.

30 في النهاية، لا بد من التوقف عند سؤال يتعلق بالجانب العاطفي لاختياري موضوع البحث عن لبنان. كان يمكن لاختبار الهواجس النظرية التي تشكلت لدي مع انتهاء السنة الجامعية الرابعة، أن تدفعني لاختيار ظاهرة الجاليات الإثنية مثلاً وما أطلق عليه تعبير "التعددية الثقافية"، لدراستها من منظور ماركسي. لكن الذي دفعني من ناحية الشعور لإجراء البحث في الطائفية والعلاقات الطبقية في لبنان، وعلاقة الإثنين معاً بتشكيل الدولة والمجتمع السياسي، كانت فكرة العودة إلى لبنان وعدم توصلي إلى قناعة نهائية بالاستقرار في أستراليا. من جهة، كنت مندمجاً في المجتمع الأسترالي في أمور حياتية عديدة: أعمل وأدرس وأدرّس بعض الساعات في الجامعة التي أحضر فيها أطروحة الدكتوراه؛ تزوجت عام ١٩٨٢ مع بداية تسجيلي في مشروع الدكتوراه، وأنجبنا ولدين هما زياد وليندا، وزوجتي كانت موظفة في دائرة حكومية فيدرالية. لم يكن أحد من أهلي أو حتى أقاربي، مصمماً على العودة إلى لبنان. ورغم كل ذلك، فكرة العودة إلى لبنان والاستقرار فيه من جديد لم تغادر ذهني. وكان التزامي بفرع سياسي لمنظمة سياسية في لبنان دليلاً آخراً على مدى التزامي بهموم الوطن الأم. في الواقع، تؤدي الهجرة إلى إعادة النظر في علاقة هوية الفرد وكيانه الشعوري بالمكان والزمان. وبفعل الانتقال إلى بلد آخر، يصبح كيان المهاجر الاجتماعي والحميمي/الشعوري خاضعاً لمسار تشكيل يحدده أكثر من مكان وأزمنة متعددة ومتداخلة ومتوازية ومتقاطعة في كثير من الحالات. كان القبول التدريجي بهذه الفكرة مدخلاً أساسياً لأغادر الشعور بالحزن والحسرة المتلازم مع واقع الهجرة.

التفكير مع ألتوسير وبورديو، وأحياناً التفكير ضدهما

31 انتهيت من كتابة أطروحة الدكتوراه مؤجلاً مشروع تحويلها لكتاب، رغم تزكية هذه الفكرة من عضوين من اللجنة الفاحصة، هما الدكتور حليم بركات والدكتور مايكل جونسون، صاحب كتاب "
وبالعودة إلى الإشكالية النظرية الماركسية التي اختبرتها من مدخل الحديث
في لبنان، يمكن أن ألخص الأفكار الرئيسية التي توصلت إليها آنذاك بالنسبة
المصالح الطبقية المسيطرة والطائفية بما يلي: توظف الطبقة المسيطرة
والحفاظ على سيطرتها السياسية والثقافية؛ سياسياً يؤدي هذا التوظيف إلى
باتت معروفة للجميع، وإلى انتظام سياسي-إيديولوجي ذي معايير وقواعد
الهوية الطائفية لكل طائفة، ولنظام الشراكة بين الطوائف بما ينسجم مع
ضمن كل طائفة، وبطريقة تعزز سيطرة المؤسسات الدينية/الطائفية على
شرارة بأن الطائفية هي "خط اليمين الجماهيري"، شرط أن نضيف أن خصائ
الطائفة المعنية. وأخيراً، يشير "الاستتباع" بالمعنى الخلدوني، إلى نمط
إطلاق ديناميات اجتماعية وسياسية واقتصادية كفيلة باستيلاد المواطن
الجماعاتية (على رأسها الطائفة)، والمنفتح على احتمال اكتساب هويات

توقف التحليل في أطروحتي عند هذا الحد، أي عند الإجابة عن تأثير الطبقة،
على "البنى الفوقية" من منظومات سياسية وإيديولوجية واجتماعية وثقافية

للسؤال الأول، والمتعلق بتأثير "البنى الفوقية" على "البنية التحتية"، أي على الاقتصاد والمصالح الطبقية المتشكلة على قاعدة هذه البنية.

33 وقبل الجواب على هذا السؤال، انصرفت مباشرة إلى دراسة المهاجرين العرب، خصوصاً اللبنانيين منهم، في أستراليا من مداخل عديدة، أهمها التمييز الإثني و"ثقافة البيض" و"التعددية الثقافية"، وعلاقة كل ذلك بالطبقة المهيمنة في أستراليا، لا سيما الفئة "البيضاء" منها المستندة إلى إرثها الكولونيالي الاستيطاني. ويمكن القول إن هذه التجربة البحثية والكتابية أدت إلى اختبار القدرة التحليلية للمقولة الماركسية للمرة الثانية، حول تحتيم الاقتصاد للبنى الفوقية "في التحليل الأخير"، وإنما ضمن سياق المجتمع الأسترالي المختلف تاريخياً وبنيوياً عن نظيره اللبناني. والملفت في هذه التجربة ليس فقط التركيب المهاجر والتنوع الإثني للمجتمع الأسترالي، وإنما أيضاً التغيرات التي حصلت خلال الخمسين سنة الماضية، وتناولت أساساً الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للطبقات الموجودة في المجتمع الأسترالي (كما في المجتمعات الغربية الأخرى). ومع نهاية هذه التجربة، تبينت لي الفوائد التحليلية والقدرة التفسيرية للمنظور الماركسي، وفي الوقت نفسه بعض الحدود لذلك المنظور، لا سيما المتعلق منها بتبيان تأثيرات "البنى الفوقية" على الممارسات والتشكيلات الاجتماعية التي تعود إلى تلك البنى والديناميكيات الخاصة بها.

34 بالطبع، لم أقتنع بالنظرية البنائية أو الاختيار العقلاني أو المؤسساتية وغيرها من النظريات التي راجت في العقود الأخيرة. وبكلام مختصر، بقيت هذه المقاربات قاصرة عن تفسير العديد من المسائل المتعلقة بالممارسات والتشكيلات الاجتماعية، رغم المساهمات العديدة التي قدمتها. وبقي الأمر على هذه الحال، إلى أن بدأتُ بالاطلاع على أعمال عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو، ووجدت فيها ما يسعفني على تجاوز مقولة تحتيم الاقتصاد للسياسة والثقافة والإيديولوجيا "في التحليل الأخير"، دون التفريط بالقراءة المادية للمجتمع والممارسة الاجتماعية. أعتقد أن كتابات بورديو عالجت في جانب أساسي منها الإشكالات النظرية (وتداعياتها العملية) التي واجهت ماركسية ألتوسير وغرامشي كما جميع الكتابات المتناسلة من مقاربة فيبر في دراسة المجتمعات والفعل الاجتماعي. وفيما يتعلق بالأمور التي شغلت بالي، اتضح لي بالاستناد إلى كتابات بورديو، أنه لا يكفي التمييز بين علاقات الاستغلال وعلاقات السيطرة، والإقرار بمساندة الواحدة للأخرى، بل أن هناك بين الفاعلين في كِلا الحقلين نزاع دائم على جعل ما يملكونه من موارد مستمدة من ممارسة السيطرة (مثل السلطة السياسية أو الدينية أو العنصرية أو الجندرية أو إلخ) و/أو الاستغلال (الثروة بمختلف أشكالها ورأس المال) العنصرَ المقرِّر في التحكم في المجتمع وموارده وثقافته وخيارات الناس. صحيح أن علاقات الاستغلال مسؤولة مباشرة عن إنتاج سبل العيش، لكن هذه الصفة المميزة لعلاقات الاستغلال لا تجعل منها على الدوام العنصر المقرِّر للتشكيلة الاجتماعية وممارسة الأفراد الذين يعيشون في وسد
الصراع المفتوح والدائم بين أي من الموارد أو الرساميل يجب أن يكون هو اله
صياغة المجتمع وممارسة الأفراد المتواجدين فيه، وأن يمتلك القدرة على توز
"الرساميل" والموارد الأخرى (ما يسميه بورديو "العنف الرمزي").

والتفكير وفق مفاهيم بورديو لا يلغي ضرورة التفكير ضدها، هذا إذا أقرينا و
تبني كل ما هو أجدى وأكثر قدرة على تفسير الواقع الاجتماعي والإحاطة به.

تأثير مسار النشأة و"الهابيتوس" على مقاربتي للعمل الأكادي

على المستوى الإبستمولوجي والأنطولوجي، أجد نظرية بورديو مهووسة بعل
المتفاوت لأشكال عديدة من الرساميل (الموارد) التي يصنفها بأربعة أنواع أس
والاجتماعي والرمزي. وأرى هذه المفاهيم وتصنيفها هذا، مفيداً جداً لفهم أدق
الأفراد فيه، مفاهيم وتصنيفات ولّادة لمزيد من الأسئلة والأبحاث التي تجيب
الاعتباطي للعلاقات والقيم المتلازمة معها، يدفع بالقارئ ليتساءل عن المعيا
ينطلق منه لينتقد الوضع القائم. فإذا سلمنا بأن ممارسة الأفراد والجماعات،

ضمنها وبالتفاعل معها، تقوم على معايير تعسفية وعلاقات سلطة متفاوتة، يصبح محور السؤال الذي يتجنبه بورديو هي المعايير التي يستخدمها في تحليله ونقده للطابع التعسفي لهذه المعايير وعلاقات السيطرة التي تؤسس لها؟

37 وكما يقول مايكل بوراووي، الإجابة عن هذا السؤال تكون إما أن يدفع بورديو إلى تبني موقف نخبوي يفيد بأن الأكاديمي هو القادر على النقد المطلوب، وذلك بحكم نوعية اختصاصه وانخراطه بالبحث والكتابة الأكاديمية، وإما أن يجد الباحث في المجتمع القوى والفئات الاجتماعية ذات المصلحة بهذا النقد، فيتم التفاعل معها ودعمها ليس فقط لإجراء نقد "فكري مجرد" للواقع الاجتماعي، وإنما أيضاً لتغيير الشروط المادية التي تكرس السيطرة والتعسف في المعايير الاجتماعية (مما يستحضر مفهوم غرامشي للمثقف العضوي من جديد). والمتضررون في المجتمعات المعاصرة من علاقات السيطرة وعلاقات الاستغلال الناتجة عن أنظمة التوزيع المتفاوت للرساميل المذكورة أعلاه والمعايير التعسفية المتلازمة معها، هم الأساس المادي وأصحاب المصلحة في النضال والصراع من أجل بناء مجتمع تنتفي فيه هذه العلاقات وتلك المعايير.

38 أود أن أختم الكلام عن هذا الجانب من سيرتي الذاتية الفكرية بالتوقف قليلاً عند ممارستي الأكاديمية وعلاقتها بقيمي الذاتية والأخلاق التي نشأت عليها. وأسارع للقول إن هناك علاقة بين الاثنتين، يمكن لها أحياناً أن تلقي بظلالها على مسيرة الفرد الفكرية. تعاطي الأكاديميين مع مهنتهم (في الحقل الأكاديمي، كما يسميه بورديو) يخضع لاعتبارات لها علاقة مباشرة بالاختصاص الذي يختارونه، وبالجانب الإداري الذي يضبط عادة ممارسة هذا الاختصاص، والهابيتوس الذي يطبع شخصيتهم. وتصوغ الهابيتوس عبر الزمن عوامل عديدة ومتنوعة، يمكن كشفها إلى حد كبير عبر الاطلاع على مسيرة الشخص المعني والظروف التي مر بها والمواقع الاجتماعية التي احتلها عبر مسيرته.

39 باختصار شديد، أقول إن نشأتي في عائلة "مستورة" كانت تشدد عموماً على الاستقامة في الحياة العامة (ربما للتعويض عن الموارد المالية والسلطوية التي كانت تفتقدها) ولّد لدي الاستعداد "العفوي" للتعاطي بـ"استقامة" أيضاً مع الدراسة والبحث، ومع ما أدعوه بعملية اكتساب مفتوح للمعرفة. بالنسبة لي كانت الدراسة والعمل في مجال علم الاجتماع مدفوعين دائماً بتحقيق ما يدعوه مؤسسو هذا العلم: تحليل وتفسير الحياة والأنظمة الاجتماعية، وممارسة الأفراد والجماعات، لتقديم الحلول والأفكار التي تهدف لتحسين حياتهم. والمرجح أن هذه المقاربة في التعاطي مع علم الاجتماع قد تعززت بسبب الخلفية "المستورة" التي تحدرت منها، والتي كان من نتائجها الهجرة العائلية من لبنان، والنضال الشاق لتحسين ظروفي المادية والاجتماعية. هذه الخلفية العائلية والاجتماعية كان لا بد لها من أن تولّد لدي الرغبة الجامحة في التعاطي مع اختصاصي من حيث القيمة الاجتماعية التي يمثلها والمستمدة من فلسفة التنوير (مع الأخذ الفلسفة، ولكن دون التسليم بكل ما يقوله)، أي اكتساب المعرفة العلمية لفه هذا السياق، من الطبيعي أن يسقط السعي لـ"النجومية"، كما عند الكثير من "الوظيفي"، على حساب القيمة المذكورة. إن الخلفية "المتواضعة" التي أنح معها، لا تتماشى أيضاً مع التعاطي مع المعرفة كمنتج مقدّس لا يخضع للتس للتعديل، وللتغيير بالكامل في بعض الأحيان. فهذه القيم و"الاستعدادات" ال التعاطي مع اختصاصي في علم الاجتماع (أي مع "الرأسمال الثقافي" الذي را لتجعلني أنبذ الألقاب العلمية والإصرار عليها، وتقديم نفسي "بطريركاً" أكاديه وأوساطي العائلية والاجتماعية.

نعم، أنا مقتنع وبتواضع تام، أن العلاقة بين نشأة الفرد وخلفيته الاجتماعية وا مهنته بالشكل والمضمون هي علاقة وطيدة للغاية.

الزواج قضية شخصية وسياسية بامتياز

41 كنت في الثامنة والعشرين من العمر عندما تعرفت على فتاة تعمل في محل لبيع الحلوى العربية في سيدني. تبين لي لاحقاً أنها تقوم بهذا العمل خلال عطلة نهاية الأسبوع، إضافة إلى وظيفتها الأصلية في وزارة الهجرة والتعددية الثقافية في أستراليا. منذ تلك اللحظة، أصبحت من رواد ذلك المكان برفقة بعض الأصدقاء، فانجذبت إليها بعد أن استحوذت على إعجابي بالكامل.

42 بعد مرور ما يقارب السنتين على "علاقتنا"، توصلنا سوياً إلى اتخاذ القرار بأن نتزوج. غير أن هذا القرار لم يكن سهل التحقيق لأسباب تعود إلى الاختلاف في الهوية الدينية لكلا الطرفين. اختلاف له نكهة خاصة بسبب الحرب الأهلية الدائرة في لبنان والتي كانت تتخذ طابعاً مذهبياً (تزوجت نهاية عام ١٩٨٣). أضف إلى ذلك، كانت الطائفة التي "أنتسب" إليها والطائفة التي تتحدر منها حبيبتي "رجاء"، تشكلان طرفين متنازعين في تلك الحرب. أنا ماروني من زغرتا وهي شيعية من عيترون. عندما أبلغت قراري هذا لكلتا العائلتين، واجهت معارضة قوية من والديّ، ومن عائلة رجاء على السواء. والقاسم المشترك في رفض العائلتين كان الموقف الطائفي التمييزي الذي يعارض، لا بل يصارع من أجل منع الزواج من خارج الطائفة. من جهتي، تولت أمي مهمة ثنيي عن هذا القرار، لكنها لم تفلح بمهمتها بالطبع. أما أبي، فلم يواجهني بموقفه المعارض وجهاً لوجه، ذلك أنه لم يكن يتعاطى بإدارة شؤون العائلة بصورة مباشرة. من جهة رجاء، عندما قمت بمصارحة والدها بأنني أرغب في طلب يدها، سارع أبو عقيل بإبلاغي بعدم موافقته على طلبي بحجة أنها "مطلوبة" من ابن عمها. وأردف قائلاً بلهجة حاسمة: لقد أعطت العائلة كلمتها، ولا مجال للعودة عن ذلك. من جهة أخ رجاء الذي كان صديقاً لي، ومناصراً لفرع منظمة العمل التي كنت منتسباً إليها في سيدني، فقد قرر منذ سماعه بنيتي الزواج من أخته أن يبتعد عني وينهي علاقته معي بالكامل ومع جميع "الرفاق" الذين كان على اتصال بهم. أمام هذه المسألة، تساوى موقف أهلي وأهل رجاء في رفض الزواج من خارج الطائفة، رغم التباين الجذري في الموقف السياسي للطرفين: أبي وأمي كانا ينتميان سياسياً لما كنا نسميه "المارونية السياسية"، أما عائلة رجاء النواتية والممتدة، فكانت منتسبة بالجملة للحزب الشيوعي، وكان العديد من أفراد عائلتها مشاركين في القتال الدائر في لبنان في صفوف الحزب الشيوعي أيضاً.

43 في نهاية المطاف، لجأت أنا ورجاء إلى اعتماد "الخطيفة" سبيلاً للزواج. ضربت موعداً مع المحكمة في المنطقة التي كنت أسكن فيها، كامبسي، لإجراء مراسيم الزواج المدني. وفي الوقت المحدد، قصدنا المكان برفقة بعض الرفاق الذين كانوا أيضاً مقربين اجتماعياً لي، وتم الزواج بيننا في غياب كامل لعائلتي وعائلة قرينتي.

44 بالنسبة لي، كان لتلك الخطوة أبعاد حميمية وشخصية واجتماعية في آن معاً. من جهة، كنت مغرماً برجاء لدرجة أنني اعتبرت عقد الزواج منها "تحصيل حاصل"، ومنسجم مع العلاقة "الحلولية" التي كانت تربط بيننا.
الجانب الشخصي الذي واجهته في هذا السياق، كان يتعلق بالتمسك بحريتي
الاعتبارات العائلية إذ جرت العادة أن يشارك الأهل في اتخاذ هكذا خيار، إن لم
قرار الزواج من امرأة من طائفة مغايرة هو تحدٍ لمصداقية مبادئي الشيوعية.
أعدل عن فكرة الزواج بسبب الاختلاف الطائفي وأنا المنادي بالمبادئ الشيوع
التمييز بين البشر وعلى رأسها التمييز المذهبي والتفاوت الطبقي؟ زواجي م
"شخصياً" لمصداقية المبادئ التي كنت أدافع عنها. أما رفض الأهل القطعي
شيء فهو يدل على أن الطائفية في لبنان ليست فقط "سياسية" وإنما "اجتم
الخيارات العائلية والحميمية للأفراد. وانبثاث الطائفية في "الفضاءات" المتم
صياغة العديد من خصائص تلك "الفضاءات"، يفسر إلى حد كبير الموقف الم
بالدعوة لبناء سلطة واقتصاد "شيوعيين" من جهة، والتمسك بالمنطق الطائ
وعلى رأسها مسألة الزواج، من الجهة الأخرى.

المجتمع اللبناني، كما المجتمعات المعاصرة عموماً، كناية عن منظومات مرك
تفقد تمايزها و"استقلالها النسبي" في التفاعل مع بعضها بعضاً. والتغيير ف

المجتمعات الأخرى، هو بدوره عملية مركبة، لا يمكن أن يُختزل بـ"الفضاء" السياسي أو يقف عند حد هذا "الفضاء" دون أن يطال "الفضاءات" الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ويتناول حتى "الفضاء" الخاص بالأفراد.

تنشئة الأولاد في ظل زواج مختلط

46 عندما أنجبت زوجتي رجاء أولادنا الثلاثة خلال سبع سنوات من حياتنا الزوجية (بين ١٩٨٦ و١٩٩٣)، كان القرار في الأساس أن نمنحهم أسماء عربية، باستثناء ابنتي الأولى التي سميتها، بالتوافق مع زوجتي، ليندا تيمناً باسم والدتي. كانت الوالدة، كما العديد من الأمهات الشرقيات، تضحي بكل ما لديها من أجل إسعاد أولادها، وتوفير الراحة لهم. هذا أمر كان من المستحيل ألا يستدعي من جانبي نوعاً من الاعتراف الذي تجسد بأن أطلقت بدون تردد اسم والدتي على ابنتي الأولى منذ اللحظات الباكرة لولادتها. مؤكد أنني لم أفعل ذلك بدافع التقاليد، وإنما تكريماً لدور أمي المميّز في العائلة التي نشأت فيها، وإقراراً لما تستحقه من تقدير. أما اختيار زياد وليال، فكان في الأساس اختياراً لأسماء عربية، كما ذكرت آنفاً؛ لأنني لم أشأ أن أسمي أولادي بأسماء غربية رغم وجودي في أستراليا. كنت (وزوجتي) أفتخر بهويتي اللبنانية-العربية وأدعو إلى الحفاظ عليها في أستراليا (أو الأصح الحفاظ على ما لا يتعارض مع القيم الإنسانية الشاملة)، كجزء من تكريس الهوية التعددية للمجتمع الأسترالي (سبق أن ذكرت أنه مع قدوم حزب العمال إلى السلطة عام ١٩٧٢، بقيادة غوف ويتليم، شرعت الحكومة بإعادة تعريف أستراليا بأنها متعددة الثقافات). واخترت أيضاً أسماءً "علمانية"، إذا جاز التعبير، أي أسماء لا علاقة لها بالأديان (ينبغي التذكير أن ذلك قد حدث في سياق نشوب الحرب الأهلية-الطائفية في لبنان وبعد انتهائها ببضع سنوات)، لإقصاء كل ما يشير إلى الهوية الدينية أو المذهبية لأولادنا في ظل التسييس المفرط لتلك الهوية في لبنان، وتماشياً مع خطتي للعودة المرتقبة إلى لبنان. ومنعاً للفظّ المنحرف لاسم زياد عند "الأستراليين"، قمت بكتابة الاسم كالتالي Ziaad أي بإضافة حرف a منعاً للفظ الاسم "زِيّد" من الناطقين باللغة الإنكليزية. وكان لاختيار اسم زياد سبب آخر أيضاً؛ فعند ولادته، كان زياد الرحباني ظاهرة فنية ثورية، متعددة المواهب. وكنت من المعجبين بأعماله الفنية المتنوعة وخصوصاً ببعدها النقدي والتغييري (مسرحيات وبرامج إذاعية وألحان وأغاني؛ قدرة هائلة على تطويع اللغة المحكية لأغراض جمالية ونقدية ساخرة وإلخ). أضف إلى كل ذلك أنني اخترت الاسم زياد لأنه كان يرمز في مخيلتي إلى ذلك الإنسان الذي وجدت في شخصه ومواقفه جانباً يشبهني. كان زياد الرحباني بالنسبة لي الإنسان الذي قرر أن يغادر المنظور الطائفي في التعاطي مع الشأن العام في خضم الحرب الأهلية المشتعلة منذ ١٩٧٥، وأن يلتزم الفكر الشيوعي العلماني أساساً لإصلاح النظام والمجتمع في لبنان. هكذا تقاطعت عند اسم زياد جميع هذه الاعتبارات، فكان القرار (بموافقة زوجتي بالطبع) بمنح ابني هذا الاسم.

من ناحية أخرى، تخللت تنشئة الأولاد حوادث طريفة ومنها ما كان "مؤسفاً" ة
علمانيين، ومحيط عائلي أوسع لا تزال أطرافه تعتبر هويتها المذهبية علامة تـ
كان والدي ينتهز الفرصة ليؤكد أمام زياد وليندا، ولاحقاً ليال، على هوية العائ
ينتمون إليها. والملفت في الأمر، أن تأكيده هذا لم يكن (كما تناهى إلى مسم
إيماني، بل كان مهووساً بتوصيل فكرة أساسية للأولاد مفادها "أنكم موارنة"،
غالباً في سياق كلامه معهم عن لبنان وهويته السياسية. هذا من جانب والدي
أمي، فهي لم تقارب الموضوع من مدخل "المارونية" كهوية سياسية، كما كا
تطرحه، رغم المرات القليلة التي قامت بذلك، مع ليندا وليال، ونادراً مع زياد،
الاجتماعية هي هوية "مسيحية مارونية"، وبناء عليه يجب مراعاة بعض الطقو
الميلاد ورأس السنة والفصح، دون ربط هذه الاحتفالات بالذهاب إلى الكنيسة

ومن ناحية "أهل" رجاء، وبعد فترة وجيزة من ولادة زياد، جاءت والدتها أم عقيل
الجديد. وسرعان ما أخذت زياد ووضعته في حضنها وبدأت بتغنيجه المصحو
ولفتني بعد ذلك انحناء أم عقيل صوب رأس زياد ثم وضعت فمها على أذنه،

كتفيه حتى أخمص قدميه؛ وبقيت أم عقيل على هذه الوضعية تتمتم في أذن حفيدها ما يقارب نصف دقيقة، وعادت بعدها إلى وضعية الجلوس على الكرسي كالمعتاد. بعد انتهاء هذه الزيارة التفقدية، تبين لي أن الهدف من تلك الانحناءة والتمتمة في أذن الطفل، كانت تلاوة "الفاتحة"، اعتقاداً منها أنها بفعلتها تلك تفي بواجبها الديني ويصبح زياد مسلماً.

49 أثارت تلك الحادثة لدي، وغيرها من الحوادث المشابهة كالتي ذكرتها آنفاً، مزيجاً من الضحك والتأمل في ظاهرة "الطائفية" السائدة ليس فقط في لبنان، بل هي أيضاً تهاجر معنا إلى بلاد "الاغتراب". فهي في الأساس منظومة قيم وأفكار وعلاقات تنتج عنها ممارسات تفاضل وتمييز بحق "الآخر" المختلف. وتقضي هذه الممارسات على أي أمل في بناء مجتمع وطني يتألف من مواطنين ومواطنات ذوي حقوق وواجبات متساوية. وعكس ما قد يعتقد أبناء الطائفية، فلا علاقة لتلك الممارسات بالإيمان والتقوى، بل هي تتحول بين تابعيها وممارسيها إلى أدوات سلطة وخضوع وتفرقة، وتمسي مواداً لبناء هويات ما دون وما فوق الهوية الوطنية (دون أن نذكر الهوية الإنسانية المشتركة في الأساس). إنها رمز الجماعة الواحدة والموحدة، رغم انقساماتها الداخلية، لا بل بسبب طمس هذه الانقسامات و"شرعنتها".

50 من فضائل الزواج "المختلط" والزواج بين شخصين "علمانيين"، هو كشف هذه الأبعاد "الطائفية" على المستوى العائلي الحميمي، وإظهار جوانبها السياسية والاجتماعية والشخصية التي علينا أن نحاربها لبناء دولة وطنية ومجتمع منفتح على القيم الإنسانية الشاملة.

شيوعي "يحاور" أباه "الكتائبي"

51 والدي يدعى ميشال (من مواليد ١٩٢٨)، وهو الابن البكر لعائلة من أربعة ذكور وثلاث أناث. والده، جدي يوسف، كان دهاناً، ومتزوجاً من مهْجة، جدتي المولودة في صافيتا، شمال سوريا، من عائلة صايغ. كنت أتساءل أحياناً كيف تم هذا الزواج، وكل واحد منهما ينتمي إلى بلد وطائفة مختلفين (جدي مسيحي ماروني من زغرتا، وجدتي مسيحية أرثوذكسية من سوريا)، ولم أعثر على أي جواب شافٍ، لا بل الأصح القول إنه كان ثمة نوع من التكتم على الظروف التي تم فيها هذا الزواج-اللغز. ورغم ذلك، كنت أستمع لبعض "الحكايات" عن سيرة جدي التي كان والدي ووالدتي (وهي ابنة عم والدي) يتندران بها على مسمعي بين الحين والآخر. وبناء على تلك الحكايات، بدأت مع تقادم الزمن أكوّن عناصر أولية لتفسير ذلك اللغز العائلي. كان جدي "مقامراً" و"نسونجياً". إضافة إلى أنه من عائلة فلحت في أن تجمع بعض المال عن طريق الهجرة والعمل خارج لبنان، لكنه كان "يتسلبط" على جدته (حسب رواية الوالد) بعد الوفاة المبكرة لجده مستخدماً التهديد الجسدي لها، حتى سحب منها معظم "ثروتها" وبددها على "القمار والنسوان". وعليه، أصبح من المرجح أن زواج ج
الزغرتاوية"، وحتى من مكان بعيد كبلدة صافيتا، قد وقع لسهولة إخفاء تصرفا
جغرافياً عن البلدة التي يسكن فيها. على أية حال، تقول الرواية العائلية مكمل
لحين بلوغه العقد الخمسين مستفيداً من العزلة التي كانت جدتي تعيشها بع
البطريركية السائدة في ذلك الزمن.

أُجبر والدي وهو لم يزل يافعاً (أي حوالي سن الرابعة عشرة) على العمل مع و
ولم يتسنَّ له أن يتعلم الكتابة والقراءة سوى بالحد الأدنى. وبقي يمارس هذه
حيث عمل بها لحوالي السنتين قبل أن يضطر للعمل في مصنع لصناعة البرا
"جينرال إلكتريك" إلى حين بلوغه سن التقاعد (تقاعد الوالد عن العمل في أو
بسبب تعرضه لحادث أثناء العمل في المصنع). في بداية الخمسينيات من ال
عمه ليندا، وأنجبا ثلاثة صبيان وبنتين. ومنذ ذلك الوقت قرر أن يغادر مسقط
أساسيين: الخروج على البيئة الزغرتاوية التي كانت تختبر الالتحاق بـ"السياسة
وما يستتبع ذلك من "تحزُّبات" وخصومات بين العائلات الساعية للفوز بتمثيل
وفي هذا السياق، رفض والدي أن "يتعشْرن" سياسياً، فانجذب إلى "حزب الك

المتحمسين له. والدافع الآخر لخروجه من زغرتا والسكن لسنة في بيروت ثم في القبة، في طرابلس، يعود إلى سعيه لمزيد من فرص العمل، وهو المتزوج حديثاً والساعي لحياة أفضل لعائلته في المدينة، ولو بالسكن في أطرافها.

53 مع بداية وعيي بالشأن العام (أي في حوالي الرابعة عشرة من العمر)، لم أذكر أي محاولة من والدي للتكلم معي عن أي شأن سياسي، أو عن حزب الكتائب بوجه خاص. في المقابل، أذكر العديد من الأمور التي كانت تدل بشكل واضح على هويته السياسية. فعلى جدران غرفة الجلوس التي كانت تتحول إلى غرفة نوم مساءً، وقبالة الشباك المفتوح على الطريق العام المؤدي إلى زغرتا-الأرز، كان الوالد يصر على تعليق صورتين متوسطتَي الحجم، صورة للشيخ بيار الجميل والأخرى للأب سمعان الدويهي، رغم الاعتراض المتواصل للوالدة خوفاً على سلامة العائلة من "الخصوم" الطرابلسيين (فور هجرة الوالد إلى أستراليا عام ١٩٦٩، أنزلت الوالدة الصورتين وأخفتهما عن الأنظار). ورغم عدم قدرة الوالد على القراءة، كانت تصلنا بالبريد جريدة "العمل" التي سرعان ما تبين لي أنها الوسيلة الإعلامية لحزب الكتائب. وأذكر أيضاً البدلة والبيريه السوداء الخاصتين بلباس أعضاء حزب الكتائب اللتين كان أبو بيار يحتفظ بهما بعناية مميزة في الخزانة، ولم يكترث يوماً بالخروج إلى العلن وهو يرتديهما للمشاركة في المناسبات الخاصة بحزب الكتائب. إضافة إلى "الزر" الخاص بحزب الكتائب (كناية عن مجسم صغير للأرزة) وكان والدي يصر على وضعه على صدره كلما دُعي إلى مناسبات تقتضي لباساً رسمياً. وأخيراً، أذكر "الشجار" الذي كان يدور بين أبو بيار وجارنا أنطون الفلسطيني حول الصراع العربي-الإسرائيلي (علمت لاحقاً أن اسمه أنطون الحلو، وجرت العادة في بيتنا -كما في الحي المجاور- على مناداته باسم أنطون الفلسطيني، وهي عادة تحمل نظرة عنصرية واضحة بحق الإنسان الفلسطيني على الأراضي اللبنانية). أنطون كان متزوجاً من امرأة لبنانية من مزرعة التفاح" في قضاء زغرتا، وكان يسكن مع عائلته في الحي الذي نقطن فيه. وجرت العادة أن يقوم أنطون وزوجته بزيارتنا أسبوعياً كلما علم بوجود الوالد في المنزل، وسرعان ما كان يتحدث مع الوالد بموضوع الصراع مع إسرائيل، لا سيما بعد هزيمة الدول العربية في ٦ حزيران ١٩٦٧. وكان أبو بيار الكتائبي يستهزيء بالأنظمة العربية، ويؤكد دائماً على عدم قدرة العرب على استرجاع فلسطين. وكان يكرر على مسمعي أن "لبنان بلد ذو وجه عربي"، وأنه ينبغي أن يكون محايداً في الصراع الدائر بين العرب وإسرائيل.

54 ومع مجيء جميع أفراد العائلة إلى أستراليا، ظل والدي يمارس مهنة الدهان ثم بعد فترة لا تزيد عن السنتين تحول إلى كادح في المصنع، كما ذكرت آنفاً، إلى حين تقاعده عن العمل وأصبح يتقاضى من الدولة معاشاً تقاعدياً حتى وفاته في ٢٨ نيسان عام ٢٠١٨. وخلال كل تلك السنوات التي قضاها في أستراليا، بقي وفياً لحزب الكتائب بالعلاقة مع السياسة في لبنان ومناصراً لحزب الأحرار اليميني في الشأن السياسي الأسترالي.

ومنذ التزامي بالفكر الماركسي، كنت أخوض مع أبو بيار في العديد من النقاش
الفرصة أو تأزمت الأوضاع في لبنان. وكنت أتساءل بين الحين والآخر، كيف يج
حياته في لبنان منتمياً إلى فئة الحرفيين أصحاب المداخيل المحدودة جداً ثم ا
في السنوات العشرين الأخيرة من حياته في سوق العمل، أن يظل يدعم حزباً
في لبنان، وتحالف حزب الأحرار مع الحزب الوطني اليميني في أستراليا؟ لماذ
بين تفكيره السياسي من جهة وبين موقعه الطبقي الذي تأرجح بين الفئة المت
وجوده في لبنان وبين التحاقه بالطبقة الكادحة خلال معظم حياته المنتجة اق
الماركسية إن الموقع الطبقي للفرد يحدد وعيه الاجتماعي والسياسي؟ وإذا د
والدي أن يتحلى بوعي سياسي واجتماعي يدفع به إلى أن يكون أقرب إلى الأ
مناصراً لحزب الكتائب ولتحالف الأحرار والوطني اليميني في أستراليا؟

أسارع للقول إن السؤال الغلط ينتج جواباً غلطاً. السؤال أعلاه يخاطب ميشال
ميشال العيني الذي هو ابن عائلة وبيئة (زمان ومكان) وموروث محدد. وفوق
والتعارضات المخترقة لتلك العوامل (العائلة والبيئة والموروث) مصحوبة برد

"الموارد المادية والرمزية" التي كانت في حوزته. تساهم جميع هذه العوامل "الذاتية والموضوعية" بالتكافل والتساند، والتعارض أحياناً، في تحديد الممارسة الواعية والتلقائية للفرد "الملموس". وعليه لا يجوز أن نستغرب غياب تأثير "الموقع الطبقي" على وعي أبي السياسي والاجتماعي، في الوقت الذي نسقط فيه تأثير ومفعول العوامل الأخرى الحاضرة دائماً في حياته وممارساته اليومية. نشأ الوالد، كما الأكثرية الساحقة من المسيحيين والموارنة تحديداً، في بيئة سياسية تسيطر عليها الرؤية الطائفية و"هواجسها" المتعلقة بالحفاظ على وجود الطائفة من "الخطر" الداهم الذي تجسده الأكثرية المسلمة ومشروعها السياسي "العروبي" أو "السوري" الأشمل. وهذه الأفكار لم تكن مجرد رؤية تضليلية تصدر بفعل قرار تتخذه حفنة من "الزعامات والقيادات السياسية-الطائفية"، وتروج لها بعض الأقلام، لتضليل "القاعدة الشعبية" لأبناء الطائفة المارونية عن مصالحها "الطبقية" المشتركة مع أبناء الطوائف الأخرى. هذا فهم وتحليل "مثالي" وغير "مادي" للطائفية في جانبها المتعلق بالموارنة والمسيحيين عموماً في لبنان. إن طغيان الرؤية الطائفية في الأوساط المسيحية لها أسبابها التاريخية التي تشكلت منذ منتصف القرن التاسع عشر. وأتى تشكيل لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ليعطي تلك الرؤية البعد السياسي (المادي) المتجسد بمؤسسات الدولة الناشئة آنذاك. واستمر هذا البعد الدولتي المادي في إعادة إنتاج نفسه مع التعديلات التي أفرزتها نتائج الحرب الأهلية بين ١٩٧٥ و١٩٩٠، والتي كان من نتائجها الأساسية عملية استكمال تطييف السياسة والفاعلين السياسيين في لبنان عند جميع الطوائف الأساسية في لبنان. أضف إلى ذلك نشوء جميع المؤسسات التربوية والمذهبية والثقافية والإعلامية التي اعتمدت المنظور الطائفي بصورة متنامية في عملها وأنشطتها المتنوعة.

57 بالطبع واستكمالاً للمشهد العام الذي أسعى لرسم ملامحه الرئيسية، سأشير إلى الأحزاب السياسية التي تشكلت على الساحة اللبنانية ودورها في تكريس الطائفية رغم المعارضات العروبية والقومية السورية والاشتراكية والشيوعية التي كانت تواجهها. وبغض النظر عن موضوع موازين القوى والتدخلات الإقليمية والدولية التي أسفرت عن انتصار "الطائفية" في لبنان، أود أن أظهر فقط العامل الفكري-السياسي لدى الشيوعيين حصراً، وعجزه عن كسب "المعركة" ضد الطائفيين واجتذاب أصحاب المصلحة في أوساط "المسيحيين"، أمثال والدي، لصالح الرؤية السياسية التي كانوا يحملونها. الطبقة العاملة التي كان الشيوعيون يتحدثون باسمها لم تكن موجودةً في الواقع العيني للمجتمع اللبناني. بكل تأكيد هناك عمال مأجورون واستغلال طبقي لهم، إلا أنهم لم يتشكلوا في قطاع صناعي متطور وواسع، بل بقوا موزعين في أغلبيتهم في "ورش" صغيرة الحجم والاستثمار تستخدم "وسائل إنتاج" متخلفة في معظمها، ولا تستدعي الانتظام والتجانس في تنفيذ عملية الإنتاج. لا شك أن وجود قطاع صناعي متطور شرط ضروري (ولكن غير كافٍ) لفرز التعاضد والتكاتف بين أفراد طبقة المأجورين، وتكوين الأساس الاقتصادي لنضالهم النقابي، ومن ثم السياسي ضد طبقة المستغلين. لقد سهّل غياب هذا القطاع في لبنان فرز البيئة الاقتصادي "الزبائنية" والعلاقات الأهلية (المناطقية والعائلية والطائفية) وتدخلها في ض العاملة و"قوننة" سوق العمل.

لم يترجم الخطاب السياسي للشيوعيين هذا الواقع الملموس ومضاعفاته في المستَغَلّين في لبنان. بقي هذا الخطاب أسيراً لمفهوم "مجرد" عن الطبقة ال وكانت هذه "الطبقة" أقرب إلى حقيقة الطبقة العاملة في البلدان الصناعية التاسع عشر ونهاية عقد الخمسينيات في القرن العشرين. صحيح أن الشيوعي بخطابهم المعهود وتضحياتهم الجليلة، إلا أنهم لم يتمكنوا من الحفاظ حتى ع والتيارات الطائفية، عدا فشلهم في إحداث الاختراقات المطلوبة لزعزعة الاص المأجورين في الطوائف الأساسية في لبنان.

باستثناء منظمة العمل الشيوعي إلى حد ما، غلب على تعاطي الشيوعيين م مجرد أداة تضليل لتقسيم الطبقة العاملة. هذا كلام فيه الجزء القليل من حقي

وتخترق، ليس فقط "وعي" "اللبنانيين واللبنانيات" وثقافتهم، بل مختلف مؤسسات المجتمع اللبناني ودولته العتيدة. والأهم في هذا السياق هو الإشارة إلى قدرة الطائفية المتجددة على "إقناع" التابعين لها، كل حسب طائفته، أن "وجودهم" ومصيرهم، كأفراد في جماعة وجماعة في أفراد، يتوقف على الحفاظ على هويتهم "الطائفية" ومؤسساتها و"حقوقها" وممثليها السياسيين وإلخ. إنها القدرة على ربط "معنى" وجود الفرد و"مصيره" بوجود الطائفة والطائفية الملازمة لها. هذه بعض خصائص "الإيديولوجيا" بشكل عام والطائفية كرؤية إيديولوجية بشكل خاص. ووفق "الرؤية" الطائفية هذه تتم التضحية بكل شيء (بالوطن والتضامن "الطبقي" والآخر "المختلف" وإلخ) لأجل الحفاظ على "الطائفة" وأبنائها.

60 كان والدي يردد دائماً على مسامعي: "نحن المسيحيون، شو مصيرنا إذا خسرنا لبنان" (أي خسرنا سيطرتنا على الدولة والنظام)؟ وفي سياق آخر، وبعد انتقال الكفاح الفلسطيني المسلح إلى لبنان، كان يعلو صوته قائلاً: "بدك ياني يوقفني المسلح الفلسطيني عالحاجز، ويسألني عن هويتي؟". وكنت أواجه هذا الكلام بإطلاق مبادىء عامة من نوع "لا خوف على المسيحيين يا بيي بعد إلغاء الطائفية السياسية" و"الضرورات الأمنية تقتضي من الثورة الفلسطينية أن تقوم بهكذا إجراءات"، أو كلام آخر من هذا القبيل. وفي ردي الأخير، الذي كان لسان حال جميع القوى المعارضة للنظام، لم أعطِ أي وزن لما كان يشير الوالد إليه، وهو (وأنا هنا لا أتحدث عن التوظيف السياسي لهذه المسألة لصالح نفوذ إسرائيل وحلفائها الدوليين): الخط الفاصل بين المصلحة والكرامة الوطنية اللبنانية وبين المصلحة الوطنية الفلسطينية، وضرورة التوازن بينهما دون إلحاق الأذى بأي منهما. هذه مسألة لم تدخل في قاموس مَن كان مثلي يسارياً أو ملتزماً بمنظمة العمل الشيوعي. وفي ردي الأول على "خوف المسيحيين"، كان هناك استسهالٌ لمقاربة جعل الخيار العلماني مقنعاً لشخص مثل والدي يتم "استغلال" خوفه الأقلوي لمصالح قوى "المارونية السياسية" ورموزها. شعار "إلغاء الطائفية السياسية" كان ولا يزال صائباً، لكنه كان ضعيف الجاذبية لأبو بيار؛ لأن القوى التي ترفعه كانت تقف عاجزة عن منع الانزلاقات نحو الاقتتال الطائفي، كما حصل تكراراً خلال سنوات الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٩٠)، والحوامل الاجتماعية لهذا الشعار لا تزال بمعظمها طائفية في التكوين والممارسة. جميع هذه الحقائق (والعديد غيرها) تمنع مَن هم مثل والدي من فك الرهان على الطائفية والقوى والمؤسسات والرموز التي تمثلها كمرجع لمعنى وجودهم الاجتماعي وكل الأنشطة المتعلقة بهذا المعنى، واستبدالها بمرجعية القوى المناهضة للنظام. هذه القضية لا تتعلق فقط بنظام سياسي واقتصادي بديل، بل هي أيضاً قضية "وجودية" تتعلق بمعنى حياة الأفراد وسلامتهم واستحقاق الانغماس في الحياة عموماً والرهان عليها. هذا هو الهم الذي كان غائباً ومهملاً في خطاب اليسار و"حلفائه".

61 مع إدراك "مادية" الظاهرة الطائفية وشموليتها، وتوفيرها لـ"معنى" حياة الفرد وجماعته وعدم قدرة المشاريع المناهضة على منافستها في هذا المجال، وغياب هذا الفهم لها في الفكر الـ
النضالية، يمكنني أن أدرك "الفشل" الذريع في تغيير موقف أبو بيار السياسـ
والرؤية اليسارية للحياة والمجتمع، بالرغم من تفوقها الأخلاقي من حيث المبد
لبنان أو في العالم.

توفي والدي دون أن يعيد النظر في التزامه السياسي وفي "الهواجس" التي
أنا لا أزال في قيد الحياة، أجد نفسي منهمكاً، إلى جانب العديد من اليساريين،
على ضوء التطورات الراهنة وبما يتلاءم مع الديمقراطية الفعلية والحرية الفـ
في فرز ممارسة وبرنامج سياسي قادر على معالجة فرادة النظام والمجتمع الـ

العمل السياسي في أستراليا

مداخل إلى الالتزام بمنظمة العمل الشيوعي

الاحتكاك الأول بالشيوعيين جاء على لسان صديق مدرسي يدعى عمر، عندما
من المدرسة قائلاً: "هل تؤمن بوجود الله؟". وكان جوابي السريع وبدون تردد:

وجود الكون والحياة على وجه الأرض؟". هو حاول أن يقنعني أن الإيمان بوجود الله يقوم على افتراض غير صحيح: وجود خالق للكون وما فيه من مخلوقات، وأنا كنت مصراً على التمسك بهذا الافتراض لاعتقادي بعدم صواب الفكرة القائلة إن الوجود لا بداية له، أو أنه يمكن أن يُوّلد من العدم. يومذاك كان عمري لا يتجاوز الخامسة عشرة، ولم نتطرق إلى الموضوع ثانية ليتبين لي بعد عدة أشهر، أن صديقي عمر كان شيوعياً، وأن سؤاله لي كان المدخل الذي ارتآه مناسباً لتدشين انتسابي إلى الشيوعية. وعلى الرغم من استمرار الصداقة بيننا، تمنَّع عمر عن طرح هذا الموضوع معي ثانية، واكتفى باصطحابي عدة مرات إلى مركز الحزب الشيوعي في ساحة النجمة، طرابلس. خلال تلك الزيارات، لم يحدث معي أيّ شيء له علاقة باجتذابي إلى التقرب أكثر من الشيوعية، أو إلى الحزب نفسه.

64 الاحتكاك الثاني في لبنان، كان بصورة غير مباشرة عندما حرّض خالي فيليب صديقه سمعان ليسألني عن قراءاتي خارج المواد المدرسية. كان الهدف من طرح السؤال لفت انتباهي إلى المجلة الفكرية للحزب الشيوعي "الطريق". وهكذا كان. بدأت بشرائها، لكنني لا أذكر أن الأعداد التي حصلت عليها، وهي قليلة جداً في الأساس، شكلت حافزاً كافياً لانتسابي إلى الفكر الشيوعي أو إلى الحزب الشيوعي. لكن علي الاعتراف أن شرائي لمجلة "الطريق" كان نادراً قبل هجرتي إلى أستراليا لتعسر توفر المال المطلوب لذلك.

65 بعد شهر آب عام ١٩٧١، حين هاجرت مع أهلي وإخوتي إلى سيدني، بدأ احتكاكي بـ"الشيوعية"، لا بل تعاملي مع هذه المدرسة السياسية والفكرية، يأخذ منحى آخر. كنت قد بلغت السابعة عشرة من عمري وبدأ اهتمامي بالشأن العام في لبنان والعالم العربي، وفي أستراليا، يزداد أكثر فأكثر. في الخامس من كانون الأول ١٩٧٢، وصل إلى سدة رئاسة الوزارة حزب العمال بقيادة غوف ويتليم، أهم شخصية سياسية إصلاحية شهدتها أستراليا منذ نشوء الفيدرالية الأسترالية، في بداية عام ١٩٠١. خلال ثلاث سنوات من تسلمه للحكم، أنجز حزب العمال حزمة من الإصلاحات لا تزال الفئات الشعبية في المجتمع الأسترالي تتمتع بنتائجها للآن، رغم تآكل العديد منها مع صعود النيوليبرالية منذ الثمانينيات في القرن الماضي.

66 عايشت هذه المرحلة المليئة بالإنجازات في مسار بناء دولة الرفاه في أستراليا، كما تصورتها أعرق الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وبموازاة هذا المسار، كان العالم العربي، وفي القلب منه لبنان، يعيش مرحلة بروز العمل الفدائي والكفاح المسلح، رداً على هزيمة حزيران وأحداث أيلول الأسود عام ١٩٧٠. انتقل العمل الفدائي الفلسطيني إلى لبنان إثر انهزام المقاومة الفلسطينية في الأردن، الأمر الذي أدى إلى وضع النظام اللبناني برمته أمام تحديات طالت الأسس التي نشأ عليها: هوية لبنان الوطنية والميثاق الوطني المعقود عام ١٩٤٣، والاقتصاد الرأسمالي الحر المعتمد أساساً على قطاع التجارة والخدمات المالية وما إلى ذلك.

كل ذلك كان يحدث في سياق تفجر الأزمات الاجتماعية في لبنان الذي بدأ في الستينيات، وصعود الحركات المطلبية المدعومة من الأحزاب اليسارية والمت الطائفية المعارضة. هذا هو السياق المركب لما كان يحدث في الوطن الأم و العام لتنامي اهتمامي بالسياسة، وخصوصاً بالجانب المتعلق بالحركة الشيو للمشاكل التي كانت تواجهنا. بدايةً، كان عليّ أن أحدد موقفي من تلك القضا المحتدم بين اللبنانيين، أكانوا في لبنان أم في سيدني. والنقاش في سيدني وما يدور فيه من أحداث ملتهبة ومتسارعة، ومنه ما يتناول السياسة في أستر ويتليم من نقاشات حول نهجه الإصلاحي وارتباطه بالفكر اليساري. والنقاش ا يومياً في كل منزل عائلي ولقاء اجتماعي بين الأصحاب والأقارب. حداثة مهاج الصاخبة وافتقادهم للمنابر المتوفرة لهم عادة في لبنان، في الفضاء العام ال وشغف "التزاور" بين الأصحاب والأقارب ومناسبات "البيكنيك" و"باربكيو"، م وبدرجة أقل بكثير في أستراليا.

68 في تلك المرحلة، لم تكن الإذاعات العربية وخدمات البث التليفزيوني متوفرة عبر الأوطان ووسائل الاتصال الاجتماعي، كما هي الحال راهناً. وكان الاتكال أساساً يقوم على بعض الصحف التي تصدر في سيدني أسبوعياً باللغة العربية، وعلى تناقل الأخبار عبر القادمين الجدد من لبنان أو عبر الهاتف الذي كان استخدامه متقطعاً ومتباعداً لكلفته المادية العالية في ذلك الزمن.

69 الجميع ملهوف لتلقف آخر المستجدات، والمشاركون في النقاش منقسمون حول عدة قضايا: لبنان بلد عربي أم لا؟ الدفاع عن حق الفلسطينيين في استخدام الأراضي اللبنانية لتحرير فلسطين، أم لا؟ الوقوف مع أو ضد مطالب الحركات الاجتماعية (من عمال ومزارعين وطلاب وحركة نسائية)، ونعتهم بـ"اليسار الدولي"؟ وإلخ. أضف إلى ذلك، جاءت إقالة غوف ويتليم من رئاسة الحكومة في نهاية عام ١٩٧٥ لتضيف مزيداً من المواد القابلة للاشتعال على النقاش الملتهب أصلاً حول اندلاع الحرب الأهلية في نيسان من العام ذاته.

70 في هذه الأجواء المشحونة بالحماس والملتهبة في البلد الأم، لبنان، وفي أستراليا، كان العالم بالنسبة لي، أنا ابن الثامنة عشرة، والمهاجر حديثاً إلى سيدني، مقسوماً ببساطة إلى فئة الظالمين وفئة المظلومين. إزاء هذا التصوير البسيط للعالم، وجدت نفسي تلقائياً متضامناً مع الفئة الثانية ومناهضاً للأولى. و"الظالم" في هذا السياق كانت طبقة الأغنياء في لبنان وأستراليا، ودعاة التمييز الطائفي والاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين. أما "المظلوم" فتمثّل بالفقراء والفئات الشعبية، سواء في لبنان أم في أستراليا، والشعب الفلسطيني المطرود من أرضه والمنتشر في المخيمات والكثير من بلدان العالم.

71 جاء هذا الموقف المبدئي على خلفية اجتماعية ليست فقط "مستورة"، ولكن كان على أصحابها أيضاً أن يهاجروا من لبنان تباعاً منذ عام ١٩٦٩ لكي يحافظوا أولاً على هذه الوضعية التي كانت مهددة بالانحدار أكثر فأكثر، ومن ثم ليسعوا إلى تحقيق مستوى معيشي أفضل. أضف إلى ذلك، انغماس الوالد منذ قدومه إلى سيدني في ممارسة مهنة الدهان، ومن بعدها العمل في مصنع "جينرال إلكتريك"، معطوفاً بالتحاقي بالعمل في المصانع لمد يد العون إلى العائلة، والدراسة ليلاً للالتحاق بالجامعة. جميع هذه الظروف الحياتية شكلت الإطار العام الذي أحاط بمعايشتي للأحداث والنزاعات التي أوردتها سابقاً، وأعتقد أنها ساهمت بصورة غير مباشرة في ترجيح الخيارات السياسية التي اتخذتها إلى جانب "المظلومين"، أكان بالنسبة إلى لبنان والصراع الأهلي الدائر فيه أو بالنسبة إلى النزاعات السياسية التي كانت تعصف بأستراليا.

مداخل إلى الالتزام بمنظمة العمل الشيوعي

72 خلال النصف الأول من سبعينيات القرن الماضي، كنت أخوض "معارك" طاح
اعتبرتهم "ضحايا" النظام في لبنان و"ضحايا" الاستيطان الصهيوني في فلس
عالمياً. وكان يحدث ذلك في المناسبات الاجتماعية العديدة التي كنت أتواجد
من عائلة مارونية ومسقط رأسها هو مسقط رأس رئيس جمهورية لبنان آنذاك
الأمر خوض أولى مواجهاتي "السياسية" مع البيئة التي "أنتمي" إليها. في هـ
لاستخدام "سردية" مناهضة لسردية "الخصوم" و"الحلفاء" على السواء، بالظ
طرح الأسباب الموجبة للوقوف مع "الضحايا" تتعدى الحماس العاطفي والم
أهميتهما المبدئية. كان التنافس بين "السرديات" المختلفة يشمل "الخصوم"
"الأحزاب والقوى المسيحية"، وقراءتها للنظام اللبناني و"القومية اللبنانية" ال
الاستعلائية، إن لم نقل العنصرية، للعرب، وللعروبة كرابطة قومية شاملة. فـ
أوسع وأكثر تنوعاً. هنا انقسمت القوى عموماً بين "إسلام سياسي" وأحزاب قـ
الطرف الأول بالدعوة لتوزيع "أعدل" للسلطة والمنافع العامة على الطوائف
وكانت حركة "المحرومين" بقيادة الإمام موسى الصدر، والقيادات السنية المـ
أبرز الممثلين لهذا الخطاب، مع التأكيد على الطابع الأكثر "جذرية" لخطاب "ا

الطرف السياسي "السني". تجسد الطرف الثاني بالأحزاب القومية بفرعيها العروبي (الناصري والبعثي) والقومي السوري. أما الطرف الثالث، فتمثل أساساً بالحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي.

73 في موازاة هذا المشهد الاجتماعي الذي كنت أدور في وسطه في سيدني، جددت صداقتي مع جون بشارة منذ وصولي المدينة، بعدما تعرفت عليه بصورة سريعة وهو يزور لبنان في صيف عام ١٩٧٠. كان جون يكبرني بثمانية عشرة سنة، وقد بدأ حياته السياسية مناصراً لجمال عبد الناصر ومدافعاً عن القومية العربية. بعد هزيمة ١٩٦٧، ودخوله المتأخر إلى الجامعة في سيدني لدراسة الفلسفة، تحول جون تدريجياً إلى تبني الفكر الماركسي وأصبح ناشطاً على الصعيد الإعلامي في أستراليا يدافع عن القضية الفلسطينية وعن حق الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح طريقاً لتحرير فلسطين. كان جون، إلى جانب طوني مارون وبطرس عنداري، من مؤسسي حركة "أصدقاء فلسطين" التي لعبت دوراً إعلامياً بارزاً في عقد السبعينيات في أستراليا، دفاعاً عن القضية الفلسطينية.

74 ومن نتائج صداقتي الوطيدة مع جون منذ السنوات الأولى لهجرتي إلى أستراليا، أنه شجعني على قراءة بعض الكتب الماركسية (أذكر منها البيان الشيوعي وكتاب "معذبو الأرض" لفرانز فانون وبعض كتابات جورج طرابيشي؛ كان لدى جون مكتبة هي الأكبر في سيدني) ونمّى لدي الوعي بشرعية النضال لتحرير فلسطين. ومن بين الكتب التي قرأتها بتشجيع من جون، كان كتاب لجوزيف شويري ينقد فيه الحزب السوري القومي الاجتماعي، الأمر الذي أبعدني عن هذا الحزب وعن خياراته الفكرية ومنها فكرة القومية السورية. فقبل هجرتي من لبنان، كانت أفكار "الزعيم"، أنطون سعادة، كما قرأتها في كتاب "المحاضرات العشر"، قد ألهبت حماسي إلى حين احتكاكي بجون والقراءات الماركسية.

75 وفي سياق الأنشطة السياسية التي تعددت إثر اندلاع الحرب الأهلية في لبنان في ١٣ نيسان ١٩٧٥، تسنى لي التعرف على شخصين عرّفا عن نفسيهما بأنهما كانا قبل هجرتهما من لبنان عضوين في منظمة العمل الشيوعي، وأنهما يرغبان في تأسيس فرع للمنظمة في سيدني. ومنذ ذلك الحين، بدأت أتعرف على الخط السياسي للمنظمة، باطلاعي الدوري على كتابات مجلة "الحرية"، واتفقت مع الشخصين المذكورين على إنشاء فرع للمنظمة في سيدني. ومع اتخاذ هذا القرار، باشرنا بالعمل على كسب المزيد من الرفاق والأنصار حتى وصل عدد الرفاق الملتزمين حزبياً لغاية الستين شخصاً أو يزيد. وامتدت شبكة الرفاق لتشمل أشخاصاً في كل من كانبرا وملبورن. أما دائرة الأنصار، فقد تعدت المئتين، وكانوا من الذين يشاركون في المناسبات التي كنا ننظمها دعماً للمنظمة الأم في لبنان. وعندما أصبحت "بيروت المساء" حصرياً الوسيلة الإعلامية للمنظمة، تمكنا من كسب مئة وعشرين مشتركاً لصالح تلك المجلة.

التزمتُ بالمنظمة، وصممتُ أن أناضل من أستراليا لتحقيق أهدافها في لبنان
أسباب شكلت وقتئذٍ العوامل التي دفعتني شخصياً للالتحاق بها): قياساً بالق
والسوري، كانت المنظمة تلتزم بالقومية العربية، لكنها تربط النجاح -أو الفشل
بالصراع الطبقي وليس بمجرد الإقرار بهوية وتاريخ عربيين (أو سوريين) متخيّ
الشوفينية، إن لم نقل العنصرية، جعلت المنظمة الانتماء القومي متكاملاً مع
طريق الدعوة لاستحواذ الطبقة العاملة وسائر المستغَلين على قيادة المشر
الوطني من الاستعمار) ما يؤدي حكماً إلى التآخي بين الشعوب (علاقات أمم
الشوفيني فيما بينها؛ فموقفها النقدي من التجربة السوفيتية في بناء الاشترا
لموسكو، وأخيراً تطبيقها الخلّاق للمفاهيم الماركسية في قراءة المنظمة للمج
مفهوم "الإقطاع السياسي" وتحليل الطائفية بما هي علاقات "مادية" وليس
لحرف الطبقة العاملة عن مصلحتها في الوحدة ضد النظام الرأسمالي، وهيد
بنية النظام الرأسمالي في لبنان). باختصار، كنت منبهراً بمقولة مفادها "الأم

سليماً"، وقدرة الخطاب السياسي لدى المنظمة في أن يجمع بين اعتبار الطائفية منظومة "علاقات مادية" والمنظور الطبقي في قراءته لما يحدث في لبنان.

77 قبيل الشروع في بناء فرع للمنظمة في سيدني، كنت على علاقة مع شخص شيوعي آخر يدعى جليل بيضون. لم أعد أذكر كيف تعرّفت على جليل، لكن المرجح أن ذلك قد حدث في إحدى المناسبات التي كانت تنظمها جمعية "أصدقاء فلسطين" المذكورة أعلاه، في سيدني. كان جليل صاحب تجربة حزبية في لبنان قبل مجيئه إلى أستراليا، إلا أنه لم يفصح عنها أمامي أبداً. إضافة، كان يتمتع بشخصية توحي بالوقار والاتزان، خصوصاً أنه كان أكبر مني في السن بعدة سنوات. وفي سياق تزايد حماسي للفكر الشيوعي، كنت أجد في الجلسات الحوارية التي كنت أعقدها معه أسبوعياً، ويتم خلالها في غالب الأحيان، رواية تجاربه النضالية، ما يدغدغ رغباتي في الالتحاق يوماً ما بالنضال مع الرفاق في لبنان. والملفت في هذه التجربة مع جليل هو غضبه اللاحق مني إثر الإعلان، أنا وثلة من "الرفاق"، عن عزمنا على تأسيس فرع لمنظمة العمل الشيوعي في سيدني. كاد غضبه هذا أن يصل إلى حد القطيعة الكاملة بيننا. وسرعان ما تبيّن لي بعد "زعلة" الرفيق جليل أن تصرفه المفاجىء سببه "خيبة الأمل" التي شعر بها لإشهار التزامي بمنظمة العمل في الوقت الذي كان يسعى فيه -دون أن أشعر بذلك ولو للحظة- لضمي إلى الحزب الشيوعي اللبناني بتكليف من المنظمة الحزبية في سيدني. هكذا بدأ يتبين لي، أنا الشاب الثوري المتحمس لـ"تغيير" لبنان والعالم ولتحرير فلسطين وبناء المجتمع الاشتراكي، أن "الخصوم" كثر ومتنوعون في الأهداف والأحجام والخطورة.

الانتماء إلى المنظمة والعمل في صفوفها

78 اتفقنا، نحن مجموعة من الرفاق لا يتعدى عددهم أصابع اليد، على تشكيل الهيئة الأولى لما أسميناه لاحقاً فرع منظمة العمل الشيوعي في سيدني. وبدأنا نرسم المهام التي التزمنا بالعمل على تحقيقها كأفراد أو سوية. كانت المهمة الأولى تبليغ المنظمة في لبنان بوجودنا في سيدني، والحصول على اعترافها بنا فرعاً خارجياً لها. بعد ذلك، قام الرفاق بانتخاب مسؤول سياسي للهيئة ومسؤول مالي (المهمة المباشرة للأخير كانت جمع الاشتراكات الشهرية من الأعضاء وثمن مجلة "الحرية" من الذين يحصلون عليها، أكانوا رفاقاً أم أنصاراً). كذلك قررنا عقد اجتماع دوري كل أسبوعين لنقاش الموقف السياسي المتمثل بافتتاحية "الحرية" (ولاحقاً "بيروت المساء")، و/أو التعميم السياسي الداخلي الذي كان يردنا من لبنان بصورة متواترة. المهمة الثابتة على جدول الأعمال إضافة إلى ما ذكرت، كانت نقاش توسيع دائرة قراء المجلة ودائرة الاتصالات، بهدف تنسيبهم إلى فرع المنظمة الناشئ. كانت لائحة الاتصالات تنقسم إلى فئة الأصدقاء وهم عادة من قراء المجلة أيضاً، وفئة الرفاق
المحتملين أي الذين كنا نراهن على تنسيبهم للفرع، مع مرور الوقت. وأخيراً، ن
الملتزمين بالفرع: إما من آثر عدم حضور الاجتماعات لأسباب مختلفة (البعد ا
أو تقوم به وإلخ)، أو الذين تركوا الفرع بعد فترة واختاروا تأييدنا من خارج الهيئ
التي كنا نناقشها كلما اجتمعنا كانت تتعلق بنشاطنا مع باقي الأحزاب "الوطن
(كالحزب الشيوعي الأسترالي ومنظمة فيليف الخاصة بالجالية الإيطالية. وس
هذا النشاط لاحقاً). بالطبع، كان أيضاً البند الأخير على جدول أعمال كل اجتما
والطريف في هذا البند أسلوب التعامل معه الذي كان غالباً لا يمت إليه بأي
هذا الموضوع، أود أن أشارك القارئ بأهم اللحظات التي رافقت بناء الفرع و
الانخراط في هذا المسار، والرهانات التي عقدتها وأنا أشارك بأعمال فرع المن
لاحقاً). مع مرور الوقت، أي من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٣، نما فرع المنظمة لي
وملبورن ما يقارب السبعين رفيقاً ورفيقة. غالبية الرفاق والرفيقات كانوا من
تستقبل ما يناهز السبعين بالمئة من جميع المهاجرين من لبنان. وتوصل الفر
مسؤولة وأربع خلايا تجتمع بانتظام وتدار مركزياً من الهيئة المسؤولة. أضف
العاصمة كانبرا، غير أنها لم تكن تجتمع بانتظام كما كنا نفعل في سيدني. أما

أستراليا من حيث العدد السكاني، فلم نفلح وإياهم في تأسيس حالة حزبية فيها، وبقيت علاقتنا معهم ومع عدد من الأنصار ذات طابع فردي.

79 تشكل الفرع من عدة فئات، منهم من كان عضواً في المنظمة قبل هجرته إلى أستراليا، وكانت هذه الفئة منقسمة بدورها إلى مجموعتين، الأولى تم دعوتها للعمل التنظيمي بعد تأسيس الفرع في سيدني، والثانية التحقت بالفرع نتيجة لتوصية المنظمة لأفرادها للقيام بذلك قبل أن يهاجروا إلى أستراليا. والفئة الثانية كانت تتألف من الذين انتسبوا إلى المنظمة في سيدني بدافع اقتناعهم بخطنا السياسي-الفكري، ولم يكن لهم سابق علاقة بالمنظمة في لبنان. أضف إلى ذلك فئة الأنصار والمقربين، وكانوا يتشكلون بسبب نشاط الفرع العلني في أوساط الجالية والذي بدأ بعد عدة سنوات (مع بداية الثمانينيات) يتشعب ليتضمن المجال الاجتماعي والثقافي والتربوي، الأمر الذي أدى لاحقاً إلى إنشاء ما سمي "التجمع الثقافي الاجتماعي اللبناني-الأسترالي".

80 تأسيس فرع للمنظمة ونمو حجمه مع تشعب نشاطه ليشتمل على الجانب السياسي ثم الجانب الاجتماعي الثقافي كما ورد آنفاً، كان إنجازاً يبعث على الافتخار ولو بصورة غير معلنة. وبكل تواضع، قمت بدور أساسي في هذا المجال، إلى جانب الرفاق والرفيقات بالطبع، ولو بمساهمات متفاوتة. كان عدد قليل من الرفاق والرفيقات يقومون بغالبية الأنشطة في معظم الأوقات؛ أما الباقي، فكانت أدوارهم متواضعة، ولكن دائماً ضرورية لتنفيذ المهام والخطط المرسومة. أدى هذا الأمر إلى بعض الإشكالات، خصوصاً حين كان الفرع ممثلاً ببعض الرفاق الناشطين يحقق نجاحاً في مجال ما بنظر "الآخرين"، الأمر الذي كان يجعل الرفاق الأقل نشاطاً يشعرون بشيء من "الغيرة". "الاعتراف" بتحقيق النجاح في تأسيس الفرع ونمو عدد الرفاق والأنصار وتحول الفرع إلى طرف فعّال في ما أسمّيه الآن "المجال الدياسبوري اللبناني العام"، كان نوعاً من "الرأسمال" الرمزي الذي يشتهي كل فرد في الفرع أن يستحوذ عليه ويسعى إليه قدر الإمكان.

81 كان جميع الرفاق، وأنا من بينهم، يراهنون بدرجات متفاوتة على ما كانت المنظمة تمثله بالنسبة لهم من طموح وآمال وقيم تتعلق بمستقبل بلدهم الأم لبنان. وكان الرهان يتسم بالوثوقية التي تستبعد أي نوع من الشك أو التساؤل حوله، لدرجة أنه تحول إلى نوع من الإيمان الديني الراسخ رسوخ جذور شجرة الأرز في أعالي جبال لبنان. وبالنسبة لي شخصياً، كانت رهاناتي ليست فقط فوق التساؤل والشك، لكنها كانت أيضاً ذات أبعاد فكرية وأخلاقية وقيمية ما جعلني أصوغ غالباً مساري الشخصي بما يخدم تلك القيم والأفكار (السعي الدائم لاستخدام تحصيلي الأكاديمي لتعميق معرفتي بالمجتمع اللبناني -وغيره من المجتمعات- والعمل على تغييره، وصرف معظم الأوقات الاجتماعية مع الرفاق والأنصار، والتصرف في أستراليا بموجب فكرة العودة إلى لبنان والمساهمة في تغيير نظامه، وتكريس جزءٍ أساسيٍّ من حياتي في سيدني خدمة للمنظمة عبر الفرع التابع لها في أستراليا وإلى غير هذا). القيم والأفكار والمبادئ التي جسدتها المنظمة ك
صفتها "العلمية" حسب المنظور الماركسي. إنه البعد الإيماني والمقدس (بال
بحتمية التغيير نحو "مجتمع المساواة والعدالة والرفاهية"، مجتمع الجنة على
السياق، شكلت أيضاً كتابات مجلة "الحرية" ثم "بيروت المساء" القطب السيا
للعمل في صفوف المنظمة. فإلى جانب تقارير المكتب السياسي ومقالات د
فواز طرابلسي ذات نكهة خاصة تجمع بين الأسلوب الأدبي الجميل والعمق ال
غيره من الكتابات الماركسية في لبنان بأنه مبدع ولمّاح ومثير، لاحتوائه الدائم
بالنسبة لي، إلى حافز للعمل و"النضال" لا نضوب له على الإطلاق. باختصار
معنى ومبرر أساسي لوجودي، ولصياغة تصرفاتي وخياراتي اليومية لغاية بدا
عودتي الأولى إلى لبنان مع انسحابي من المنظمة التي كانت تعاني من أزم
الانكفاء عن العمل السياسي.

"المُدنَّس" في العمل الحزبي

82 للعمل الحزبي جانب آخر أقل "قدسية" وفيه الكثير من "الدنس". لم يكن فرع منظمة العمل الشيوعي في سيدني كبير الحجم بيما يكفي لتحول الانتخابات التي كانت تجري داخله إلى قضية أساسية وشائكة. ورغم ذلك، لم نستطع أن نتفلت بالكامل من بعض التداعيات السلبية لهذه الممارسة الديمقراطية للفرع. كانت الهيئة المسؤولة مؤلفة من أمين سر ومسؤول مالي ومسؤولي الخلايا الذين يراوح عددهم بين الاثنين والأربعة (لعدة سنوات، كان لدينا خلية خاصة للرفيقات). من جهة، شكل المستوى الثقافي للرفاق إضافة إلى مدى مشاركتهم في العمل التنظيمي، المعيارين الأساسيين اللذين تحكما بانتخاب أعضاء الهيئة المسؤولة. ومن جهة ثانية، كان لدى رفيقين نوع من التوقع ليكونا عضوين دائمين في الهيئة المسؤولة بشكل طبيعي، لمجرد أنهما من الرفاق الأوائل الذين دعوا لإنشاء فرع لمنظمة العمل في سيدني. في المقابل، لم يكن بالفعل نشاط هذين الرفيقين ليتجاوز حد حضور الاجتماعات، مع التأكيد على تمايز أحدهما بتحمله المسؤولية المالية للفرع، وجلب المجلة من مطار سيدني أسبوعياً لفترة زمنية كان فيها عدد الرفاق في الفرع لا يتجاوز الخمسة عشرة عضواً. وعندما اتخذ أغلبية الرفاق قراراً باختيار رفيق آخر أكثر كفاءة في إدارة مالية الفرع وضبطها تذمر الرفيق بخجل، ما أدى إلى هبوط مستوى حماسه للعمل بصورة عامة. أما الرفيق الثاني "المؤسس" للفرع، فلم يمض وقت طويل على تأسيس الفرع قبل أن يعلن عن رغبته في التوقف عن العمل الحزبي واكتفائه بدعمنا من "الخارج" وفي المناسبات العامة التي كان الفرع يقوم بتنظيمها من حين لآخر.

83 لنتناول الآن الطريقة التي كنا نمارس فيها النقد والنقد الذاتي. بالنسبة لي، كان لهذا المبدأ وجهان: تنظيمي وسياسي. في الجانب المتعلق بالمسألة التنظيمية، كان الرفاق والرفيقات (بدرجة أقل) يمارسون النقد والنقد الذاتي (بدرجة أقل أيضاً) أكثر مما كانوا يفعلونه في المجال السياسي. فالجانب التنظيمي يطول العلاقات بين الرفاق والرفيقات في سياق تنفيذ المهام "النضالية" والأدوار المناطة بالأعضاء داخل الفرع. إنه أكثر التصاقاً بـ"الشخصي" و"الذاتي" الذي يفترض أن ينسجم مع المبادئ العامة التي تجسدها المنظمة من حيث المبدأ. لذلك كان النقد والنقد الذاتي في جانبه التنظيمي، مجال صراعات وتأويلات كانت تنتهي غالباً بتبديد "سوء الفهم" أو بتقديم الاعتذار من الرفيق الذي ارتكب خطأ لا لبس حوله.

84 لكن ممارسة النقد والنقد الذاتي في المجال التنظيمي على هذه الشاكلة لم تسلم من "حدثين"، الأول ذو طابع فردي انتهى بانسحاب رفيق علي من الهيئة المسؤولة للفرع بعد سنتين من تأسيسه، والثاني كان أكثر تأثيراً وأسفر عن إنهاء وجود الفرع بالكامل، وقد حدث ذلك بالترافق مع عودتي الأولى إلى لبنان (بداية عام ١٩٩٣)، ومع الأزمة التي دخلت فيها المنظمة في لبنان وأدت في النهاية إلى انكفائها عن العمل السياسي العلني لعقدين من الزمن على الأقل. وخلال "الحدث" الثاني الذي دمّر الفرع، تبين أن بعض "الرفاق" لم يترددوا في استخدام الوسائل غير الأخلاقية في نزاعهم مع "الرفاق" الآخرين، وشمل ذلك
الإشاعات وما إلى ذلك من أمور أقل ما يقال فيها إنها لا تمت بأية صلة بالمب
أساسها.

بالنسبة لي شخصياً، معايشتي لتلك التجربة المؤسفة والمؤلمة على السواء
حتى تلك اللحظة أعتبرها من المسلمات: أن تكون شيوعياً أو يسارياً تطمح لـ
لا يعني فقط أن تفكر سياسياً بطريقة شيوعية. فإذا لم تفلح مبادئ الشيوعية
الناس ومسالكهم مع الآخرين، فإنها ستفشل حتماً في تحقيق أهدافها المعلنة
تتحكم فيه اعتبارات عدة، منها ما له علاقة بمصالحه الاقتصادية، ومنها ما يتع
والمنافسة على كسبها بالشروط التي تلائمه (وتلائم من هم من الفئة نفسها)
لأي شخص أن يكون شيوعياً بمواقفه السياسية العامة وبطريركياً في تعامله
نفسية مريضة لا تتلاءم مع فكرة بناء مجتمع حر يقوم على المساواة والعدالة
تغيير المجتمع نحو الأفضل (أكان بالمعني الشيوعي أو اليساري عموماً) هي
بنيوية عامة وشخصية خاصة. وفي المسار تترابط جميع هذه العوامل وتتفاء

تعزيز التغيير أو لجهة إعادة إنتاج مساوئ الوضع القائم بأشكال متجددة. ومن منظور سوسيولوجي أعم، أرى أن "الحقل" بمفهوم بورديو يفسر إلى حد كبير ما يجري في المنظومات الحزبية بين الرفاق، ويبيّن الأسباب التي تقف وراء تصرفاتهم، أكان على مستوى مصغّر كفرع المنظمة في سيدني أو على مستوى أكبر كحالة المنظمة في لبنان. كان الفرع كناية عن حقل نزاع وتناغم في الوقت نفسه بين الأعضاء وفئة المسؤولين عموماً. كانت علاقات التناغم والتكامل تطغى عندما يكون جميع الرفاق، أعضاء ومسؤولين، راضين بتوزيع الأدوار والمهام وما يترافق مع هذا التوزيع من إقرار بأهمية هذه الأدوار وإضفاء التقدير عليها، لا سيما من فئة الرفاق المسؤولين. ويبدأ النزاع عندما يختلف الرفاق على تقييم عمل نضالي ما (أكان مهمة نضالية أم موقفاً فكرياً أو تحليلاً سياسياً وإلخ) أو على درجة التقييم التي يستحقها. وتكون الرهانات عالية جداً في هكذا نزاعات لأنها تطال المعايير الأساسية التي تحدد "الرأسمال" النضالي والسياسي والفكري الذي يتم بموجبه تحديد "سلطة" الرفيق وحظوظه في "الارتقاء" إلى مراتب أفضل في الهرم التنظيمي للفرع (أو المنظمة ككل). في الحالة الأولى يكون الهدف "الأسمى" هو اكتساب العضوية في "الهيئة المسؤولة"، وربما الوصول إلى مرتبة الأمين لتلك الهيئة. وفي الحالة الثانية، يكون المسعى متنوع ومتعدد المستويات، وصولاً إلى المكتب السياسي وأمانته العامة. هذا النزاع للاستحواذ على المزيد من الرأسمال النضالي والصراع حول تحديد خصائصه "الشرعية"، كما السعي لتسهيل تحوله إلى مراتب "أرقى" في الهيكل التنظيمي، هو ما يفسر إلى حد كبير النزاعات التنظيمية التي تنتهي أحياناً بمغادرة فرد أو مجموعة من الرفاق التنظيم، أو انشقاق التنظيم بكامله وصولاً إلى زواله. وللأسف أن بعض "الرفاق" لا يتورعون أحياناً، في خضم هذه النزاعات، عن استخدام وسائل "غير أخلاقية" لكسب "المعركة" ضد الرفيق (أو الرفاق) "الخصم".

86 أسوق هذا الكلام وقد أصبحت على قناعة راسخة -حتى إشعار آخر- بأنه على أداة التغيير (التنظيم الحزبي) وبنيتها أن يعكسان بدقة القيم والمبادئ التي تسعى هذه "الأداة" ومن يعمل فيها إلى تحقيقها. فلا تغيير وثورة بلا حزب، بل أحزاب، تغييرية وثورية في تركيبتها وطريقة عملها. ولا بدّ لمسار التغيير أن يتسع ويتقبل التعددية السياسية ضمانة إضافية لتحقيق أهدافه، لأن إنجاز التغيير الفعلي باتجاه بناء مجتمع حر وديمقراطي وخال من الاستغلال الطبقي وجميع أشكال التسلط (الجندري والعائلي والمناطقي والطائفي وإلخ) هو نتاج لتنافس قوى عديدة في نظام حر وديمقراطي، وليس نتيجة لفعل حزب واحد أحد يعتقد أنه المالك الحصري لـ"الحقيقة الثورية"، ويقصي الآخرين لأنهم "منحرفون" و"بورجوازيون صغار" و"ضالون" عن "الصراط المستقيم".

أعداء أم حلفاء في أستراليا

87 كان لنشاط فرع المنظمة في سيدني جانب يتعلق بالأحزاب "الحليفة". شكّلت الفروع الحزبية (أغلبها لبنانية وفلسطينية) "تجمع الأحزاب والقوى الوطنية" في سيدني، إطاراً جامعاً ومنبر
وتنظيم المناسبات والأنشطة التي كنا نتفق عليها سوياً. وعلى هذا الصعيد،
مناسبات ومظاهرات مشت في شوارع سيدني بهدف دعم "الحركة الوطنية"
الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني لوطنه فلسطين. كما نجح التجمع بمسا
المنظمة، في إجراء العديد من اللقاءات مع ممثلي الأحزاب الأسترالية الرئيس
حزب الأحرار والحزب الوطني، للمطالبة بدعم مواقفنا المشتركة في الوطن ا
الإسرائيلية على لبنان واحتلال أراضيه. وقد نجح التجمع في العموم في خلق
والفلسطينية وفي مساندة الحركة الوطنية في لبنان ومنظمة التحرير الفلس
الدعم المعنوي والسياسي. إلا أن هذه المسيرة التي استمرت بحماس لغاية ا
في لبنان عام ١٩٩٠، قد شابتها بعض الحوادث السلبية التي أشّرت إلى بعض
الجبهوي بين الحلفاء "الخصوم". وإن اختياري للكلام عن ذلك هو حتماً ليس م
هذه التجربة، بل لاستخلاص "العبر" لتحسين العمل بين "الحلفاء"، ولو اختلفت
مستقبلاً.

88 أولى الصدمات التي اختبرتها كانت خلال احتفال "اتحاد عمال فلسطين" بمرور السنة الأولى على الثورة الإسلامية في إيران التي أطاحت بنظام الشاه. جاء هذا الاحتفال بموازاة نشاط آخر كان ينظمه دورياً الحزب القومي السوري في أستراليا مطلقاً عليه اسم "منبر العقائد". وكما جاء على لسان معتمد الحزب عبود عبود، كان الهدف من ذلك النشاط العمومي تقديم عرض نقدي للماركسية وللقومية العربية، وتبيان "تفوّق" العقيدة القومية السورية عليهما. بالطبع لم توافق الأطراف المنضوية في تجمع الأحزاب على هذا النشاط العلني ولم تتحمس في التجاوب معه كونه يتناول مواضيع من شأنها أن تؤثر سلباً على العمل الجبهوي. أغاظ هذا الأمر المعتمد عبود وجعله يرفع من مستوى نقده اللاذع لأحزاب التجمع من على "منبر العقائد". وفي هذه الظروف المتشنجة التي كانت سائدة آنذاك بين الحزب القومي وبين باقي الأحزاب اللبنانية والفلسطينية المنضوية في "التجمع"، قرر التجمع الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى للثورة الإسلامية في إيران، وتم تكليف فرع منظمة العمل لإلقاء كلمة التجمع في ذلك الاحتفال.

89 جرى تنظيم الاحتفال في قاعة عامة لمدرسة رسمية في ضاحية أرنكليف، حيث يتواجد العدد الأكبر من المهاجرين اللبنانيين القادمين من جنوب لبنان. وخلال إلقاء كلمة "التجمع" في تلك المناسبة، تقصّدت بصفتي الرفيق المكلف بإلقاء الكلمة بأن أختم الكلمة بالدعوة لإيقاف "منبر العقائد" والتركيز بدلاً عن ذلك على تعزيز "وحدة الصف والهدف"؛ وإذا بتلك الدعوة تقيم الدنيا ولا تقعدها. وبينما كنت عائداً إلى مقعدي في قاعة الاحتفال، بادر المعتمد وعلى وجهه علامات الغضب، بتوجيه التهديد لي شخصياً وهو يقول حرفياً: "نحنا فينا نشرب قهوة ساعة ما نشاء في بيتك". بعد ذلك توالت جملة من الأحداث منها "انتشار" أعضاء الحزب القومي على مداخل القاعة بإيعاز من المعتمد بالطبع، بوضعية توحي بجهوزية كاملة لافتعال "مشكلة" ولمنع خروجنا من القاعة، ثم صعود المعتمد إلى المسرح ودعوته لي للاعتذار على ما جاء في كلمتي وإلّا.... رفضنا تقديم الاعتذار بمبادرة من الرفيق نشأت وغيره، حتى وصلت الأمور إلى حد دعوة المعتمد من على المنبر إلى "الهجوم" على رفاق المنظمة الذين لم يتجاوز عددهم الخمسة أعضاء والبدء بضربهم بشتى الطرق.

90 أما الصدمة الثانية، فكانت عندما ذهبت إلى لبنان عام ١٩٨١ لإجراء بحث ميداني وتجميع بعض المراجع بخصوص أطروحة الماجستير عن لبنان. وهذه الصدمة لم تكن من مشاهدتي الأولى لما فعلته "الحرب الأهلية" بلبنان أرضاً وشعباً وحجراً، رغم هول الحدث وضخامته. ولم تكن أيضاً بسبب اختبار "القصف العشوائي" لأول مرة قي حياتي بين ما كان يسمى آنذاك "بيروت الشرقية" و"بيروت الغربية". أقول هذا بالرغم من تعرض البناية التي كنت في إحدى شققها أزور أحد الأصدقاء في "سن الفيل" للقصف المدفعي من الجيش السوري. الواقع أن الصدمة أتتني من مسؤول منظمة الحزب الشيوعي في سيدني الذي قرر أن يطلق إشاعة بعد رحيلي إلى لبنان مفادها أن بول عاد إلى لبنان عن طريق تل أبيب، وقد استعان لتحقيق
حزب الكتائب. هكذا، وبكل بساطة، قرر "الرفيق" المسؤول إطلاق إشاعة من
المنظمة الذي كان يعتبره منافساً لدوداً لمنظمة الحزب الشيوعي في المدين

تجربتان ثانويتان بالقياس إلى ما أنجزناه في "تجمع القوى والأحزاب الوطنية
دور الحزب الشيوعي والحزب القومي في العمل السياسي في أستراليا. إلّا أن
كانت تواجه العمل الوطني بين الحلفاء، وحتى بين من كانوا الأكثر تقارباً في
والمنظمة. ولا أتردد بالقول إن هذا المستوى في العمل الوطني كان موجود
وظروف مختلفة. وجزء من الدليل على ذلك هو ما وصلت إليه العلاقات الس
وقوى وشخصيات "الحركة الوطنية اللبنانية" إبان الحرب الأهلية في لبنان، و
"ثورة ١٧ تشرين" منذ انطلاقتها في أواخر عام ٢٠١٩.

بداية الانتماء إلى الفضاء العام في أستراليا

الكتابة عن تجربتي في فرع المنظمة في أستراليا لا تكتمل إذا لم أتطرق إلى
قمنا به إلى جانب العمل السياسي. مع بداية ثمانينيات القرن الماضي، بدأت

العمل الاجتماعي الثقافي لنشاط الفرع في سيدني. أولاً، بدا لنا واضحاً أن العديد من الأنصار لا يرغبون في الالتزام الحزبي، أقله في بداية علاقتنا معهم، لكنهم لا يترددون في العمل والمشاركة في أي نشاط له طابع ثقافي أو اجتماعي أو حتى فني. كذلك تبين لنا أن إطلاق وتنظيم مناسبات ثقافية من شأنها أن تجتذب فئات تهتم بهذا الصنف من الأنشطة، إما من باب المشاركة أو من مدخل المساهمة فيها. وأخيراً، بدأت أتشارك مع بعض الرفاق في طرح بعض الأفكار التي أخذت تتشكل لدي بعد مرور ما يقارب العقد من الزمن على وجودي في أستراليا. ومن بين هذه الأفكار أن للجالية اللبنانية، والعربية عموماً، حاجات وقضايا لها علاقة بالمجتمع الذي تستوطن فيه، ما يستدعي مقاربتها وصوغ المواقف الملائمة لها، خصوصاً بعدما تبين لي أن هناك مؤسسات خيرية ومذهبية، إضافة إلى ظهور فئات ذات مصالح اقتصادية محلية ناشئة، تسعى للانخراط في المجتمع الأسترالي من مدخل موروثها التقليدي، ورؤيتها الأهلية، ومصالحها المادية الضيقة. حدث هذا النقاش وتكوّنت هذه الأفكار تدريجياً في الوقت الذي كانت فيه الدولة والسلطة في أستراليا يعيدان النظر بتحديد هوية المجتمع الأسترالي باتجاه تحويلها بالتدرج من مجتمع "أبيض أنغلو-سكسوني" إلى مجتمع "متعدد الثقافات". أدى هذا التوجه الجديد، الذي أطلقه حزب العمال بقيادة غوف ويتليم، إلى الاعتراف بالحاجات الخاصة لدى الجاليات الإثنية ووضع السياسات لمعالجتها. بالمقابل، بدأت تبرز في أوساط الجالية القوى المشار إليها آنفاً لتدعي صفة تمثيل المهاجرين اللبنانيين وتطالب الحكومات المتعاقبة بالمنح والمساعدات المالية تحت مسمى تلبية "حاجات" الجالية. على ضوء هذه التطورات، كنت مع بعض الرفاق ندعو الفرع للانخراط في ما أسميناه آنذاك "العمل المحلي" وتقديم رؤية "تقدمية" لما ينبغي أن تكون عليه علاقة الدولة والحكومة الأسترالية بالجالية من مدخل المصلحة العامة لتلك الجالية منظوراً إليها من موقع الفئات الأكثر تضرراً في المجتمع الأسترالي، أكانوا من العمال وأصحاب المداخيل المحدودة أو من ضحايا العنصرية "البيضاء". الواقع أن ما ساهم أيضاً في بلورة الوعي بأهمية الانخراط في العمل "المحلي" من هذا المنظور هي الأجواء الأكاديمية المنهمكة آنذاك في تحليل أبعاد "التعددية الثقافية" وتقييمها، وعلاقتنا مع مجموعة من الجالية الإيطالية تدعى "فيليف" كانت تقرأ سياسياً "التعددية الثقافية" من منظور غرامشي لعلاقتهم التنظيمية بالحزب الشيوعي الإيطالي.

93 وفي النهاية، قام الفرع بتبني هذا التوجه مركزياً لمصلحة الانخراط في العمل "المحلي" بعد انعقاد مؤتمره الأول بوجود الرفيق وديع الذي جاء ليزورنا للمرة الأولى في بداية الثمانينيات بصفته المسؤول المركزي في المنظمة عن فروعها في الخارج. لكن انخراط بعض الرفاق في العمل "المحلي"، أي الاجتماعي والثقافي والفني والتوجه للعمل سياسياً في سيدني من مدخل "التعددية الثقافية"، كان قد بدأ قبل انعقاد المؤتمر المذكور. فبدايةً، أسسنا ما أطلقنا عليه اسم "التجمع الثقافي الاجتماعي اللبناني-الأسترالي"، وبدأت الأنشطة المتعددة باسم التجمع تنمو وتتنوع: افتتحنا عدة مدارس لتعليم اللغة العربية فيها إلى خمس مئة طالب)، وأصدرنا مجلة "طريق الجالية" التي تعمدنا أن تـ والقضايا المتعلقة بوجود الجالية في أستراليا والمجتمع الأسترالي عموماً (تر وصدر منها عشرة أعداد ثم توقفت لعدم قدرتنا على تحمل الكلفة المالية الـ معرضاً سنوياً للكتاب العربي كان الأول من نوعه في أستراليا. إلى جانب الـ نظمنا معارض فنية وأمسيات شعرية، وأقمنا مسابقة لأفضل قصة صغيرة أستراليا، ودعونا لإنتاج الأدب والشعر المهجري والدياسبوري، وأسسنا فرقة لل الرفيق محمد (لم تدم طويلاً بسبب عودة محمد إلى لبنان). في الجانب السيا قمنا بدور أساسي وتأسيسي لما يسمى الآن "المجلس العربي، أستراليا". وفي بشارة بحزب العمال لرفع صوتنا داخله كلما سنحت الفرصة بذلك، وتم فرز الـ العمال المهاجرين وعلى رأسهم العمال اللبنانيين. إضافة إلى ذلك، تولى الر هيئة تمثيلية للجالية اللبنانية تدعى "مجلس الجالية اللبنانية"، وقمنا بدعم الر البلدية في منطقة أوبرن مدخلاً للانخراط في السياسة الأسترالية المحلية (نجـ

عضواً في تلك البلدية). هذه محطات أساسية في تجربة العمل "المحلي" التي أعتز بها، كما هي مصدر اعتزاز للعديد من الرفاق الذين لا تزال تربطني بهم علاقات صداقة. ومرة أخرى، كان لانشقاق الفرع عام ١٩٩٣ الذي ترافق مع تفاقم أزمة المنظمة في لبنان وانكفائها عن العمل السياسي العلني لعدة سنوات، آثار سلبية على استمرارية "التجمع" ونشاطه، ما أدى إلى إنهاء هذه التجربة الرائدة في وسط الجالية رغم استمرار الحاجة الماسة إليها لغاية اليوم.

زمن كسر "الوكالات الحصرية" في حب الأوطان

94 لغاية بداية عام ١٩٩٣، حين اتخذت أنا وزوجتي قراراً بالعودة إلى لبنان، كان شعوري بالانتماء إلى أستراليا بصفتها البلد الذي أود أن أمضي فيها حياتي غير وارد على الإطلاق. ولكن هذا القول لا يختزل حقيقة المشاعر التي كانت تراودني تجاه البلد الذي مضى على وجودي فيه ما يقارب اثنتين وعشرين سنة. اثنان وعشرون عاماً (من عام ١٩٧١ إلى ١٩٩٣) تخللتها سنوات من العمل والدراسة، ثم العمل في حقل التعليم والزواج وإنجاب الأولاد وشراء منزل والعمل السياسي والاجتماعي في المجالين اللبناني والأسترالي، ونسج صداقات من مختلف الخلفيات الإثنية إلى غير ذلك. كل ذلك وطوال تلك السنوات، لم أطرح على نفسي مسألة العودة إلى لبنان من باب التشكيك بها أو مراجعتها على ضوء اختبار العيش في أستراليا. لكن الغريب بالأمر أنني كنت أتصرف عملياً كسائر الأفراد الذين يتخذون من أستراليا وطناً نهائياً لهم. وربما كان في طريقة التصرف تلك تعبير عملي عن مدى ارتباطي المخفي بأستراليا، دون الارتقاء به إلى مستوى القرار الواعي بالاستيطان النهائي على أراضيها. واقع الأمر أن مسألة الانتماء على المستوى الشعوري كانت، ولا تزال، مسألة شائكة ومتناقضة وملتبسة. ألاحظ مثلاً وأنا أكتب هذه السطور، كيف أنني كنت ولا أزال أنزلق في كثير من الأحيان لعمل مقارنة بين لبنان وأستراليا، خصوصاً عند التفكّر بالأمور التي كنت أواجهها في أستراليا. لكن في العقد الأول والثاني من وجودي في أستراليا كانت أغلب المقارنات تنتهي لمصلحة لبنان، أما بعد عودتي الأولى للاستقرار فيه عام ١٩٩٣، فقد بدأت تميل بتزايد لمصلحة أستراليا. وهذا التحول ليس بعملية بسيطة ولا تخضع لخط بياني صاعد. فمع العودة الأولى إلى الوطن، تتحطم العديد من الصور عن لبنان لاصطدامها بالواقع الفعلي فيه. ويتضح تدريجياً أن الصور التي كونتها عن لبنان بعد مغادرتي له هي في أغلبها صور نابعة من الإحساس بالفقد (بالمعنى العلم النفسي لكلمة "الفقد"، من حيث أن الوطن المهجور يشبه رمزياً الأم المهجورة)، فجاءت الصور على قدر كبير من المبالغة في تجميل الوطن المفقود والأصدقاء والقيم والعلاقات التي غادرتها عام ١٩٧١. في المقابل، ومع مرور الزمن واختبار العيش في أستراليا، تزداد المعرفة بالمجتمع الأسترالي وقيمه ونظامه ومؤسساته، وتنجلي الصورة أكثر لتبرز مميزاته الخاصة مقارنة بنظيره اللبناني. ومع هذا المسار المتعاكس، تبدأ كفة الميزان بالرجحان لمصلحة أستراليا، شيئاً فشيئاً. ولكن ورغم ذلك التحول، يبق... يخفت حيناً ويستيقظ حيناً آخر. فكما أن الارتباط بالمرأة و"الوقوع" في حبها (ل... فلان" يشير إلى نوع من أنواع فقدان التوازن أمام الآخر والاستسلام له) لا يمحَ... الأم الأول، فكذلك الارتباط بأستراليا لا يمكن له أن يمحو أو يعوّض عن الارتباط... الارتباط المزدوج الذي تتفاوت درجته لكلا الطرفين (لبنان وأستراليا) وفق الظ... الذي تأكل فيه والتعامل مع أصحاب أستراليين والظرف السياسي في لبنان و... ملازماً لي بغض النظر إن كنت في لبنان أم في بلاد الكنغر. في المحصلة، أن... والأصلية لارتباطي و"حبي" لوطني لبنان، فإنني أيضاً أشعر بارتباطي و"حبي... الإقرار بها، رغم تعارضها مع النزعة "الوطنية" أو "القومية" التي تقوم على ح... الهجرة والتنقل السريع والسهل والترابط المتزايد للشعوب والبلدان، هو فعلاً... حب الأوطان.

السياسة في المهجر والهجرة في السياسة

95 من المؤكد أنني لم أُجرِ "مقابلات شبه مفتوحة" مع أعضاء فرع منظمة العمل الشيوعي في سيدني لأكتب هذه السطور؛ إلّا أن مشاركتي في إنشاء الفرع ومساهماتي في مختلف أنشطته، تسمح لي تقديم "ملاحظات بالمشاركة"، كما يقول الإثنوغرافيون. والسؤال هو ما الذي دفع بهؤلاء الرفاق والرفيقات للانضمام إلى فرع المنظمة في بلاد الكنغر، واستمرار الأغلبية في العمل في صفوفه لخمسة عشرة سنة أو تزيد؟ انضم إلى فرع المنظمة أناث وذكور (نسبتهم كانت أكبر من نسبة الإناث) من مختلف الطوائف الأساسية في لبنان. وهذا أمر متوقع نظراً لمبادئ المنظمة ودعوتها لقيام مجتمع لا طبقي خالٍ من الاستغلال والسيطرة، ولفصل الدين عن الدولة وعن الشؤون العامة، واعتبار الهوية الإنسانية هي القاسم المشترك بين أبناء المجتمع اللبناني. هذا من حيث المبدأ العام الذي يحدد هوية المنظمة وفرعها في سيدني. ولكن أن يجري تأسيس فرع للمنظمة في بلد يقع في المقلب الجنوبي للكرة الأرضية، فهذا أمر مستغرب للوهلة الأولى ويستدعي المزيد من التأمل.

96 تأسست المنظمة الأم في لبنان وهي تطمح لتغيير المجتمع اللبناني بالاستناد إلى الطبقات والفئات المستغَلة التي تتواجد فيه أساساً. في المقابل، نشأ لها فرع بعد أربع سنوات من تأسيسها في سيدني، من مهاجرين لبنانيين لا يتوجهون إلى ممثلي الطبقات المستغَلة في أستراليا إلا لدعوتهم للتضامن معهم في نضال المنظمة لأجل "تغيير" المجتمع الذي غادروه. ورغم الظروف الحياتية الجديدة والمغايرة التي يعيشونها في أستراليا والقوى السياسية المحلية التي تتنافس على الحكم، فإن الرفاق في فرع سيدني للمنظمة ظلوا مهمومين بمشروع التغيير في لبنان، وقدموا تضحيات مختلفة في سبيل هذا التغيير المنشود. وعلى ضوء هذا الفرق في المكان الذي ينطلق منه العمل السياسي للمنظمة وفرعها في سيدني، لا بد أن يكون للرفاق والأنصار في سيدني دوافع للعمل تختلف وتتمايز عن تلك التي تحدو بالرفاق للعمل في صفوف المنظمة في الوطن الأم لبنان. الالتقاء في الداخل والخارج على مشروع التغيير أمر لا لبس فيه، ولكن أن تسعى للتغيير من داخل المجتمع شيء، ومن خارجه شيء آخر.

97 من وجهة نظري، أن الإقرار بظاهرة الهجرة وما تستتبعه من حقائق جديدة تتعلق بالوعي والمسلك الفردي والجماعي، هو أمر ضروري إذا أردنا أن نتلمس معنى أن "نناضل" لتغيير الوطن من خارجه. عندما هاجر الرفاق والرفيقات في فرع المنظمة من لبنان، قاموا، كغيرهم من المهاجرين، بمغادرة الوطن-المكان، وإنما لم يفقدوا حس الانتماء إليه ولم يقطعوا العلاقة مع الذين تركوهم يعيشون فيه. والأهم أنه "هاجرت" معهم القيم والسلوكيات والهابيتوس التي نشأوا عليهم في وطنهم الأم. إنها "العدّة" التي كانوا يملكونها عند وصولهم إلى أستراليا، مضافاً إليها بالطبع تحدي العيش في "بلد" آخر. وتماشياً مع هذا الواقع، سعى المهاجر، كرفاق ورفيقات المنظمة، إلى بناء نسخة مصغّرة عن وطنه في أستراليا بجميع أشكاله ومن بينها الجانب السياسي بكل خلافاته ونزعاته والأحلام التي يستولدها. وغالباً ما يكون هذا التصرف مد حيناً آخر، في العودة إلى لبنان والاستقرار فيه من جديد. فإذا دفعت الظروف في "استقدام وطنه" إلى المكان الذي هاجر إليه. وحتى عندما يتخلى المهاجر النهائية إلى لبنان للاستقرار فيه من جديد (وهذا حال أغلب المهاجرين في نها المرء بلاده وفي ذهنه سنوات لا تتجاوز أصابع اليد يعود من بعدها إلى وطن له لينخرط في العمل السياسي اللبناني) فإنه لن يتخلّى عن التصرف في كثير لبنان الذي غادره كمكان، وليس كمنظومة علاقات وقيم ومسالك وأحاسيس.

أضف إلى ذلك صعوبة الاندماج في المجتمع الجديد، أكان بسبب الفروقات ب العنصرية "البيضاء"، ما يعزز لدى المهاجر النزعة للتمسك بالموروث الذي أت فيه. وكما ذكرت سابقاً، فإن تجاوز العديد من العوائق مع مرور الوقت، التي ت أستراليا، لا يلغي بالضرورة التفاعل بالتوازي مع الوطن الأم والسعي الدائم ل فالهجرة كما سبق وكتبت تؤدي إلى كسر "الوكالة الحصرية" في حب الأوطان

99 إلّا أن الفرز الطبقي-الاجتماعي الذي يختبره الرفيق أو الرفيقة في أستراليا، يبقي عنصراً حاسماً في ديمومة التزامه/ها بفرع المنظمة في سيدني. فأغلب الرفاق والرفيقات الذين ابتعدوا تدريجياً أو فجأة عن الالتزام بفرع المنظمة، قد اختبروا في الأساس نوعاً من الترقي الطبقي-الاجتماعي، ما جعلهم يتخلون عن الالتزام بالفكر الشيوعي والمشروع السياسي الذي كنا نحمله. إلا أن هذا التحول في القناعة السياسية لم يعن بالضرورة قطع العلاقة بالوطن الأم وعدم استمرار الاهتمام بشؤونه السياسية والاجتماعية المختلفة.

100 خمسة عشرة عاماً من العمل في فرع المنظمة في سيدني، قدم خلالها الرفاق والرفيقات شتى أنواع التضحيات مدفوعين بحلم التغيير في لبنان وبناء مجتمع اشتراكي تنتفي فيه الفروقات الطبقية وعلاقات التسلط. خمسة عشرة عاماً، اختار خلالها جميع الرفاق والرفيقات أيضاً مشروع ورؤية المنظمة مدخلاً للتخفيف من قسوة "الغربة"، ما جعل من المسار الشائك والمعقّد لعملية استقرارهم في أستراليا أخف وطأة على كيانهم الاجتماعي والشعوري.

العيش في سيدني: السكن والجيرة والصداقة

101 العيش في أستراليا، السكن وتحصيل العلم والعمل وإنشاء الصداقات وما إلى ذلك، مليء بالمفاجآت والإعجاب وكذلك النزاعات والإدانة في بعض الأحيان. هو كالعيش في الوطن الأم ولكن مع فارق أساسي: نظام مختلف وعادات وثقافة وتاريخ مغاير لنظيره في لبنان. عند وصولي إلى بلاد "الكنغرو"، كما يحلو للبعض أن يسمّيها، وكنت في الربع الأخير من العقد الثاني من العمر (آب ١٩٧١)، لفتني وأنا في الطريق المؤدّية إلى منزلنا في ضاحية كامبسي في جنوب غرب سيدني، انتظام السير وامتناع السائقين عن استخدام زمور السيارة. كذلك لاحظت التزام السيارات السير بين خطوط بيضاء متقطعة حيناً ومتواصلة حيناً آخر. هذه أمور لم نألفها آنذاك، لا في لبنان عموماً ولا في محلة القبة حيث كنت أسكن مع إخوتي وأهلي. "التزْمير" كان (ولا يزال) ملازماً لقيادة السيارات في لبنان كما أن السير على الطرقات كان (ولا يزال) فوضوياً ولا يلتزم بقوانين السير المعروفة.

102 بعد مرور ما يقارب النصف ساعة من ركوبي، مع بقية أفراد العائلة، سيارة والدي التي أقلتنا لأول مرة من المطار إلى بيتنا الذي لم نره بعد، دخلت السيارة في شارع مستقيم وعريض (تعلّم والدي قيادة السيارة بعد هجرته إلى أستراليا إذ لم يكن بمقدوره امتلاك سيارة في لبنان). كان اسم الشارع كامبسي وعلى جانبيه منازل مسيَّجة تتوالى بصورة مستقيمة حتى نهاية الطريق. ولاحظت أيضاً أن جميع المنازل في شارع كامبسي (كما في الشوارع الأخرى) تتراجع بضعة أمتار عن سور البيت الأمامي مفسحةً المجال لحديقة مكسوة بالعشب الأخضر، وعلى أطرافها مختلف أنواع الزهور والشجيرات. بيوت يعلوها القرميد الأحمر ومتساوية تقريباً بالحجم والارتفاع. وعندما سألت عن المنزل الذي نقصده، أجاب والدي بأنه "رقم ٣٩".
أستراليا أرقاماً وللشوارع أسماء، وتنقسم المنازل بين جانبي الطريق وفق الأر
تقع على جهة والمنازل ذات الأرقام المزدوجة على الجهة المقابلة. هكذا بدأت
الفوري إلى فضاء تنظمه علاقات وممارسات تتعارض مع علاقات وممارسات
لبنان.

بعد عدة أيام، بدأت أتساءل عن الجيرة وهوية السكان في شارع كامبسي. هل
كان السؤال الأول الذي خطر بالبال. أجاب والدي: "عائلة من زغرتا وعائلتان م
كلاماً مفاده أن الناس في أستراليا غير ما هم عليه في لبنان. الجميع يعمل و
العادة في لبنان. كان عليّ أن أباشر العمل في المصنع حتى أكتشف حقيقة
في العمل المأجور يقتضي أن أستيقظ باكراً، حوالي السادسة صباحاً، لألتحق
النصف ساعة عن بيتنا بالاعتماد على السيارة كوسيلة تنقل. وبعد التحاقي لي
تيكنيكل كوليدج) لدراسة اللغة الإنكليزية، أمسى من شبه المستحيل أن أجد ال

باستثناء يومي السبت والأحد. وحتى خلال عطلة نهاية الأسبوع، كان عليّ أن أنظم اللقاءات والزيارات وما إلى ذلك، وفق الأوليات والبعد الجغرافي الفاصل بيني وبين الصديق المنشود ودرجة الصداقة مع الآخرين.

104 ورغم ذلك، كان للعيش في أستراليا تأثيرات مميزة وواضحة على معنى الجيرة والصداقة والاجتماعيات. الجيرة أصبحت في الغالب تجاوراً. حتى تبادل التحية بين الجيران نادراً ما كان يحصل وإن حصل فكلٌ من وراء سياج حديقته دون أن يفضي إلى تجاوزه بالكامل لإطلاق علاقات مفتوحة على التزاور وما إلى ذلك. كان الجميع ملتزماً باحترام هذه الوضعية في التعامل، رغم حداثة دخولنا فضاء الأعراف الاجتماعية في سيدني. وهذا لا ينطبق فقط على العائلات اللبنانية، بل على جميع العائلات غير الأنغلو-سكسونية القاطنة في شارع كامبسي أو في أي شارع آخر في مدينة سيدني.

105 في جوار بيتنا كانت تسكن عائلة من اليونان، وكنا سوياً نلتزم بعرف التجاور كما يحدث ما بين العائلات الأخرى. تحية من وراء سور البيت مع ابتسامة مرفقة في الغالب بالتعليق على حالة الطقس أو بالسؤال عن صحة الطرف الآخر. ورغم بقائنا في الشارع لعدة سنوات، لم يتقدم أحد منا بدعوة الآخر لزيارته في المنزل. وربما الفارق الوحيد بين ممارسة هذا الطقس مع العائلة المهاجرة من أصول غير أنغلو-سكسونية وسواها من العائلات المتحدرة من المملكة البريطانية، كان يتعلق بتعابير الوجه لكلا الفريقين: الشرق الأوسطي يعكس شعوره المرحب بجاره على تقاسيم وجهه، أما الأنغلو-سكسوني فتقاسيم وجه الجار أو الجارة تبقى محكومة بالجمود مع تحريك موضعي للشفتين بداعي التجاوب مع التحية لا غير.

106 تركت شارع كامبسي سنة ١٩٨٢ عندما تزوجت لكنني ثابرت على زيارة أهلي فيه حتى وفاة والدي سنة ٢٠١٨ وكانت والدتي قد سبقته سنة ٢٠١٦. وفي المحصلة تبين أن المهاجرين الشرق أوسطيين والأوروبيين الجنوبيين يتزاورون، وإنما كل مع عائلته وأصدقائه القادمين من البلد نفسه. وتبين أيضاً أن التزاور بين المهاجرين اللبنانيين والأستراليين الأنغلو-ساكسونيين قد يحدث وإنما نادراً ووفق أصول محددة.

العيش في سيدني: السكن والجيرة والصداقة

107 مقابل منزل والدي، كانت تسكن ميسيز كروس. وعندما نشأت علاقة صداقة بينها وبين والدتي تبين أن ميسيز كروس أرملة وفي العقد السادس من العمر. وتجسدت تلك الصداقة باتباع روتين شبه يومي بين الطرفين: عند حلول الرابعة بعد الظهر، تأت ميسيز كروس إلى منزلنا لتشارك الوالدة في حضور مسلسل تلفيزيوني، وتنهي الزيارة بتناولها الـ"أفترنون تي" مع بعض الحلوى. وظلت والدتي والسيدة كروس تتبعان هذا الطقس لزمن طويل كانت خلاله الأخيرة شاهدة على نمو أولادي الثلاثة لسنوات عديدة وتد
بيت جدهم وجدتهم بعد انتهاء دوام المدرسة. بذلك تعمقت العلاقة بين والد
ضمن أعراف ومجالات واضحة المعالم لا تتعداها كما يحدث عادة مع الجيران

ولي مع زوجتي رجاء تجربة أخرى مع جارنا "الأسترالي" المحازي بيته لبيتنا في
زواجنا. عندما انتقلنا للسكن في تلك الضاحية القريبة من كامبسي، تبين أن ال
يعود لعائلة "أسترالية" تتكون من زوجين متقاعدين، رون وامرأته أليانور. في
تبادل التحية والتعليق على حالة الطقس السائدة. واستمرينا على هذه الحال
رُزقنا بمولودنا الأول زياد. وبينما كنت عائداً إلى المنزل بعد عدة أيام مصطح
المستشفى، وجدنا كيساً ورقياً منتفخاً بعض الشيء وملقى أمام باب المنزل.
عن هوية الفاعل ومحتوى الكيس. وتبين لنا لاحقاً أن جارتنا أليانور كانت الشخ
وضعت في داخل الكيس قطع ثياب صوفية قامت بحياكتها لطفلنا الجديد ز
بعدما أن بادرت فجأة لزيارتنا لتقديم التهاني بالمولود الجديد وبسلامة رجاء.
على استعداد كامل لمعاونة رجاء وتدريبها على تغسيل زياد عند حلول المو

العلاقة بيننا، فتبادلنا الزيارات والأحاديث في المواضيع الخاصة والعامة، بينما كنا نرتشف الـ"أفترنون تي" ونتناول بعض الحلوى. وتطورت العلاقة لدرجة أدت بأليانور إلى التبرع بـ"لمّ" الغسيل عن المنشر ووضعه في السلة المخصصة لذلك بعد طيّه في حال تأخرت رجاء أو تأخرت أنا عن ذلك لسبب أو لآخر. وكانت أليانور تقوم بذلك بعد دخولها إلى الحديقة الخلفية لمنزلنا عبر باب كان أنشأه زوجها رون من قطع خشب "الفانس" الفاصل بين منزل كل منا. كذلك، كانت أليانور ورون لا يترددان في مشاركتنا ما كانا يزرعانه في حديقة منزلهما الخلفية من خضار. أما رون فكان أيضاً يتبرع بقص الحشيش الأخضر الذي يكسو معظم مساحة الحديقة المحيطة بمنزلنا، في الوقت الذي يقص فيه الحشيش في حديقة منزله. ميسيز كروس وميسيز أليانور ومستر رون، كانوا نماذج أسترالية لجيران من أوساط اجتماعية شعبية ويتحدرون من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية. صحيح أن مسار تكوين هذه الصداقة مميز، غير أن مضمونها ذو بعد إنساني للغاية.

109 أما صداقتي الفردية مع الأستراليين، فقد تأخرت إلى ما بعد تخرجي من الجامعة ومباشرتي مهنة التعليم الجامعي. لم تكن فكرة الاستقلال عن الأهل بعد بلوغ الجامعة أو الدخول في سوق العمل أو الاثنين معاً، من الأفكار التي تدخل في قاموس التربية العائلية لديّ. بالمقابل، كان جميع أصدقائي "الأستراليين"، ذكوراً أو أناثاً، منفصلين عن أهلهم ويشاركون أصدقاءهم في العيش في منازل خاصة بهم. وإذا لم يكن الشريك صديقاً أو صديقة، فالمرجح أن يكون "بوي فرند" أو "غرل فرند". لم أفلح يوماً في اتقان هذا الشكل من "المصادقة"، باستثناء دخولي في علاقات "غرامية" مراهقة التي لم تتطور يوماً إلى مستوى الشعور بدافع للانفصال عن السكن مع "أهلي" والسكن مع الـ"غرل فرند" في منزل يخصنا نحن الاثنين فقط.

110 خلال مهنة التعليم في أستراليا، تعرفت على زملاء عديدين لكني أنشأت علاقة صداقة فعلية مع اثنين منهم لا أكثر. وقد نمت هذه الصداقة بفعل تشاركنا في أعمال بحثية أدت إلى العديد من الكتب والدراسات الأكاديمية، لا سيما في مجال الإثنية والهجرة والتمييز العنصري. ومع مرور الزمن، بدأت علاقتنا تتوسع لتشمل العناية المتبادلة بالأحوال الشخصية والعائلية لكل منا. ورغم قلة اللقاءات العائلية والترفيهية (مثلاً الذهاب إلى المطاعم والحانة أو الـ Pub) لاحتساء البيرة، واستخدام المنزل الجبلي في العطل الرسمية عند شغوره من صديقي الذي يملكه، إلخ) إلا أنها أصبحت جزءًا لا يتجزأ من صداقتنا المستمرة للآن. صداقة مبرمجة بالزمان والمكان ومحددة المعالم والمواضيع التي يجوز أو لا يجوز البحث فيها. ففي سياق هذا النوع من الصداقة، تشعر أن العلاقة مع أصدقائك معقلنة بالمعنى الفايبيري: تحقيق الهدف، أي اللقاء وتبادل الأخبار والأحاديث، بالوقت والمكان المناسبين وبأقل تكلفة (محسوبة بالمدة الزمنية المخصصة للقاء) للأشخاص المعنيين.

111 على الضفة الأخرى للصداقة مع أفراد من الجالية اللبنانية، كانت العلاقة أقل برمجةً وفيها شيء من "الفوضى"
قياساً على العلاقة مع أصدقائي "الأستراليين". غالباً ما كنا ولا نزال نزور بعض
بعضنا البعض، دون مواعيد سابقة وبدون أي حرج. ويمكن أن يؤدي ذلك إلى
سلفاً لدى الطرف المستقبل لصديقه الزائر (بالطبع، أغلب المواعيد في هذه
كموعد طبيب مثلاً). وكانت صداقتنا ولا تزال لا تتورع عن التدخل في أمور ش
البداهة المأذونة. وقد بقيت صداقتي على هذا المنوال ما أفضى إلى شيء م
في أستراليا.

إن مطحنة الحداثة الرأسمالية كفيلة بإعادة صياغة علاقات الصداقة ومغزاها
الشخصية؛ إلا أن الهجرة وما يرافقها من بتر لسياقات التطور التدريجي للمجت
للمهاجرين، وما ينتج عنها من نزاعات اقتصادية وسياسية وثقافية تشتمل عل
الثقافية للمهاجرين، دون أن تقتصر عليهم، كفيلة ليس فقط بتكريس ظاهرة
المعاصرة، وإنما تساهم أحياناً بجعل المهاجر كائناً هجيناً في ممارساته اليومي
بالمجتمع الذي يستقبله دون أن يضحي بعناصر عديدة من ثقافته الأم.